أسرار اختلاف الرد في جواب

﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ؟

إعداد

د / مريم عبد العظيم محمد السيد

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر ببورسعيد

١٤٤٢هـ = ٢٠٢٠م

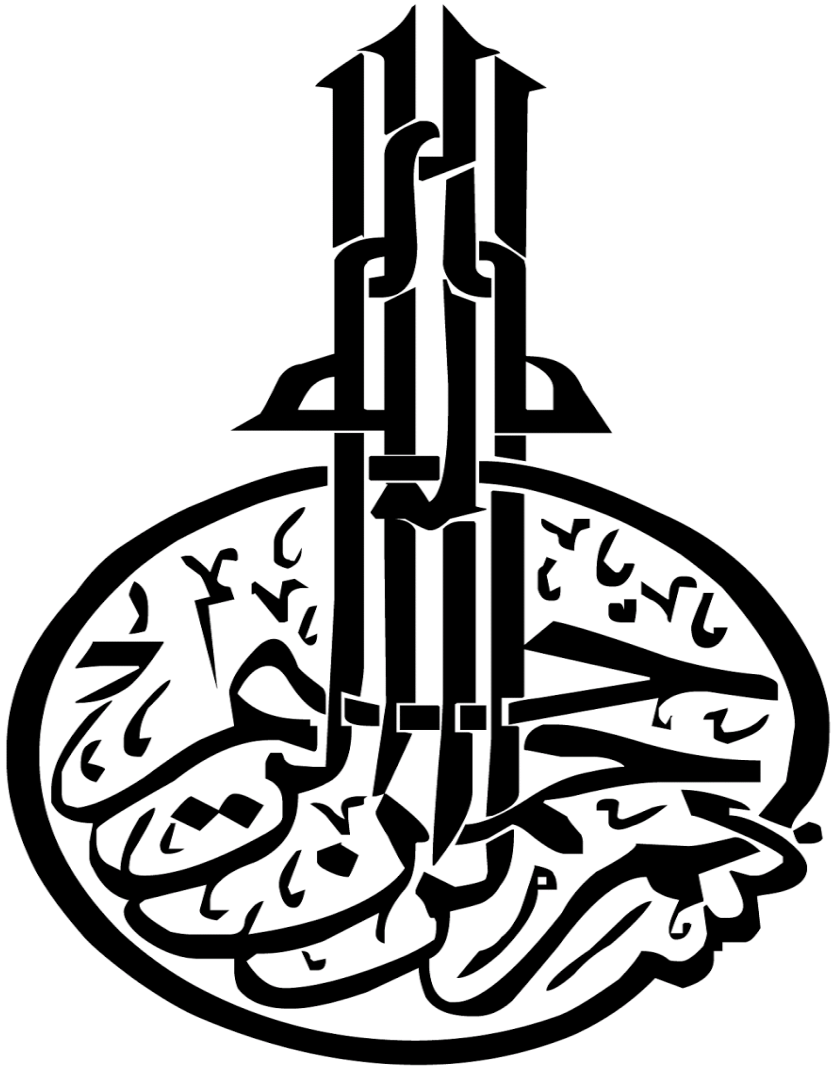

أسرار اختلاف الرد في جواب " متى هذا الوعد؟"

مريم عبد العظيم محمد السيد
قسم البلاغة والنقد -كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد – جامعة الأزهر – مصر.
البريد الإلكتروني:
mryamelsaid113@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

في هذا البحث استقراء لقول الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وجوابه حيث وقع من القرآن بغرض الوقوف علىٰ أسرار اختلاف جواب هذا السؤال الواحد، وتعدُّد الرّدّ عليه بتعدُّد المواضع والسُّور التي ورد فيها، والحكمة في تخصيص كل موضع منها بجواب لا يصلح لغيره من المواضع. وقد اعتمدت المنهج الاستقرائي التحليليّ في هذه الدراسة التي كان أهم ما توصّلت إليه من نتائج: أن هناك أمورًا أدّت إلىٰ تعدُّد جواب هذا السؤال الواحد بتعدُّد مواضعه التي ورد فيها، منها: اختلاف مقصد كل سورة، وموضوعها العام الذي تتناوله، واختلاف واقع الحال، وواقع المقال في كل سورة، كما أكَّدت الدراسة علىٰ بلوغ القرآن الكريم درجة لا تُضاهىٰ في البلاغة والفصاحة، إذ عرضت نموذجًا من النماذج القرآنية التي طابق بها الكلام مقتضىٰ الحال.

الكلمات المفتاحيَّة: متىٰ هذا الوعد؟ مطابقته، للسياق، المقام، حلول العذاب، المشركين.

The Secrets of different response in the answer to"When will this promise come true?"

The name of the researcher: Mariam Abdel Azim Mohamed El-Sayed
Rhetoric and Criticism at the faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Port Said - Al-Azhar University- Egypt
E-mail: mryam elsaid113@azhar.edu.eg

Abstract

In this research an extrapolation to the saying of the blessed, the exalted Allah: 'When will this promise (the day of Resurrection) come to pass if you are telling the truth' and the answer in Quran, to show the secrets of different answers to the same question, and there are several answers to this question according to multiplicity of positions and surahs that are mentioned in it and the wisdom to make every position specific with an answer that is not suitable for other positions. I adopted the inductive analytical approach in this study, which was the most important of its findings: there are things that led to the multiplicity of the answer to this one question according to the multiplicity of positions in which it was mentioned, including: the different purpose of each surah, its general subject, the different reality of the situation, and the reality of the article in each surah, and the study confirmed that the Qur'an reached a unique degree of eloquence and rhetoric, as I presented a model of the Qur'anic models that words matched appropriately.

Introductory words
When will this promise come true? , Its Matching, context, place , Torment for them, the polytheists.

المقـدِّمة

الحمد لله الذي أنزل كتابًا أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدنه تفصيلًا، والصلاة والسلام علىٰ من أرسله ربه ليكون للعالمين نذيرًا، وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعه بإحسان وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

وبعـــد:

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله المُعجِز، أنزلـــه علىٰ خاتم الأنبياء محمد – صلىٰ الله عليه وسلم – في قوم عُرفوا بالفصاحة والبيان، فأدهش سمعهم، وحيَّر ألبابهم وعقولهم بسحر بيانه، وروعة معانيه، ودقة ائتلاف ألفاظه ومبانيه، وأخذ عليهم منافذ البيان كلها وقطع أطماعهم في معارضته، فظلوا مقموعين مدحورين ثلاثة وعشرين عامًا، يتجرعون مرارة الإخفاق، ويهطعون لقوارع التبكيت، وينغضون رؤوسهم تحت مقارع التحدي والتعيير[(١)].

وقد دعانا الله – عزَّ وجلَّ – في كتابه الكريم إلىٰ تدبُّر آياته، والنظر في كلماته، فقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[(٢)]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[(٣)]، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[(٤)].

---

(١) يُنظر: إعجاز القرآن للباقلاني إعجاز القرآن للباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ) . تحقيق: السيد أحمد صقر. ط: دار المعارف – مصر. الخامسة، ١٩٩٧م. ص٦.

(٢) النساء: ٢٨

(٣) محمد: ٢٤

(٤) المؤمنون: ٦٨

بل إنه – سبحانه – جعل تدبُّر آياته هو الغاية التي لأجلها نزل، فقال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [1].

ولهذا فقد عكف المفسِّرون والعلماء – علىٰ اختلاف العصور والأزمان – علىٰ القرآن الكريم يتدبّرون آياته، ويتسارعون في إبراز وجوه بلاغته وإعجازه. ومن بين تلك الوجوه التي عدّها العلماء من دلائل إعجازه اللُّغوي والبلاغي: (المتشابه اللفظي) أو (ظاهرة التكرير) بصورها المتعددة من تكرير نوع من أنواع الكلمة أو تكرير جملة أو آية كاملة، أو تكرير الموضوع أو القصة في عدة مواضع مع تغيير في بعض ظواهر اللغة من زيادة أو حذف وتقديم أو تأخير ونحوه في موضع دون آخر.

وهذه الصورة الأخيرة (تكرير الموضوع) هي التي عليها مدار بحثي هذا الذي أتناول فيه قول الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [2] وجوابه حيث وقع من القرآن، في محاولة مني للوقوف علىٰ أسرار اختلاف جواب هذا السؤال الواحد، وتعدُّد الرّدّ عليه بتعدُّد المواضع والسُّور التي ورد فيها، والحكمة في تخصيص كل موضع منها بجواب لا يصلح لغيره من المواضع. ومن ثم كان عنوان بحثي: (**أسرار اختلاف الرد في جواب " متى هذا الوعد؟ "**).

---

(١) ص: ٢٩

(٢) يونس: ٤٨

ومن أهمّ الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع:

أنني كلما مررت بهذه الآية في مواضعها الستة التي وردت في القرآن الكريم تشوَّفت نفسي إلىٰ معرفة سر التنوُّع في جواب هذا السؤال كلما ورد، وعدم مجيء الرّد علىٰ نسق أسلوبي واحد في هذه المواضع، ثم إنني طالعت – لأجل هذا التشوُّف – ما يسّره الله – تعالىٰ – لي من الكتب والمُصنَّفات التي صُنِّفت في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم[1] ، فكانت المفاجأة أن هذه الآية لم يجرِ لها ذكر البتة في هذه المؤلَّفات، بل والأغرب من ذلك أن المؤلفات التي عُنيت بمجرد جمع الآيات المتشابهة في اللفظ لم تتعرض لهذه الآية أيضًا، فابن المنادي (ت٣٣٦هـ) لم يتعرَّض لهذه الآية في كتابه (متشابه القرآن العظيم) الذي يُعدُّ أول المُصنّفات الجامعة لهذا الفن، والسخاوي (ت ٦٤٣هـ) لم يذكرها – أيضًا – في نظمه المُسمَّىٰ (هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب)، والزركشي (ت ٧٩٤هـ) ذكر في كتابه (البرهان في علوم القرآن) النوع الخامس من علومه: علم المتشابه، وجعله

(١) من ذلك: درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب ت ٤٢٠ هـ، البرهان في متشابه القرآن للإمام محمود بن حمزة الكرماني ت٥٠٥ هـ، ملاك التأويل لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي ت ٧٠٨هـ ، كشف المعاني في المتشابه من المثاني لشيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة ت ٧٣٣هـ ، كتاب قطف الأزهار في كشف الأسرار للإمام جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ ، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي زكريا الأنصاري ت ٩٢٦ هـ ، وغيرها.

خمسة عشر فصلًا، خصّ الفصل الخامس منها لحصر ما جـــاء علىٰ ستة أحرف [1] في القرآن الكريم، ولم يذكر هذه الآية في جملتها.

كذلك فإنني لم أجد من المفسّرين من تعرّض لهذه الآية علىٰ أنها سؤال يتكرر بجواب متعدد، فيذكر – مثلا – عند تفسيره لها في موضع أنها وردت في مواضع أخرىٰ، وأن الجواب هنا غير الجواب هناك، وأن السر في ذلك كذا، بل غاية ما وجدته في ما ندر من تفاسيرهم أن يذكر أحدهم في أحد مواضع هذه الآية وجه الجواب فيها، دون التعرُّض لغيره من المواضع، ومقارنته به، وهو ما لم يشفِ علّتي، ويروِ غلتي.

ومما دفعني لهذا البحث – أيضًا – رغبتي في خدمة كتاب الله – تعالىٰ – والإسهام في التنقيب عن دُرَرِه ومكنوناته التي ظلت سر إعجازه، ومصدر قوته علىٰ مرّ العصور والأزمان، وهي الدليل الدامغ والبرهان الساطع علىٰ كونه كلام الخالق – جلَّ وعلا – الذي لا يشبه كلامه كلام أحد من خلقه، وليس لهم – مهما بلغت قوتهم – أن يضاهوا أسلوبه ونظمه البديع، أو أن يأتوا ولو بآية من مثله.

كذلك فليس هنالك شيءٌ آنسُ لـــروح المسلم، وأمتــعُ لنفسه من أوقات يقضيها مع كتاب الله – عز وجل – يتدبر معانيه، ويتفكر في مبانيه، ومن هنا سألت ربي الفتح والعون والتوفيق والسداد في ولوج ذلكم البحر الذي لا ساحل له.

---

(١) يعني به ما تكرر ذكره في ستة مواضع.

وقد انتظم هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، تتبعها خاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات:

المقدمة: تحدّثت فيها عن أهمية الدراسة، وما دفعني إليها، وضمّنتها خطة الدراسة، والمنهج المُتّبع فيها.

التمهيد: عرضت فيه للفكرة العامة التي تدور عليها الدراسة، ثم ذكرت نبذة تاريخية عن علم المتشابه اللفظي الذي تنتمي إليه.

المبحث الأول: موضع سورة يونس.

المبحث الثاني: موضع سورة الأنبياء.

المبحث الثالث: موضع سورة النمل.

المبحث الرابع: موضع سورة سبأ.

المبحث الخامس: موضع سورة يس.

المبحث السادس: موضع سورة الملك.

خاتمة: جمعت فيها أهم ما توصّلت إليه الدراسة من نتائج.

ثبت المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

هذا، وقد اعتمدت المنهج الاستقرائي التحليليّ في الدراسة من خلال تتبُّع الآية الآنفة الذكر وجوابها حيث وقعا في كتاب الله – تعالىٰ – ثم عرض

آيات كل موضع في مبحث خاص بها، مع ترتيب المباحث علىٰ حسب ترتيب سُوَرها في المصحف، ثم تحليل جزئيات كل موضع تحليلًا يهدف إلىٰ الوقوف علىٰ وجه اختيار جوابه، واستئثاره به دون غيره من المواضع، مع بيان دور السياق السابق واللاحق وأثره في مجيئ الجواب علىٰ وجهه الذي طابق به مقتضىٰ الحال، وما يتبع ذلك من الكشف عن بعض ألوان البلاغة القرآنية التي حوتها الآيات، وبيان أثرها في النفوس.

واللهَ أسأل أن يتقبل مني هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، فما أردت به إلا خدمة كتابه العزيز، وإبراز أحد أوجه إعجازه، وما مثلي ومثل ما أردته إلا ﴿ كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ ﴾[1] ، فليس عملي هذا إلا قُلًّا من كثرة، ومن البحر قطرة.

د/ مريم عبد العظيم محمد السيد
مدرس البلاغة والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد – جامعة الأزهر

(١) الرعد: ١٤

التّمهيد

حرص القرآن الكريم – ولا سيما المكيّ منه – علىٰ إبراز عقائد أهل الشرك، وتفنيد مزاعمهم في الوحي، وإبطال تكذيبهم للنبي– صلىٰ الله عليه وسلم – وإثبات صدق نبوّته بالدلائل والبراهين العقلية التي تقود كل من كان له قلب إلىٰ الإقرار بوحدانية الله – تعالىٰ – والإيمان برسوله، وتصديقه فيما يقول.

ومن بين تلك المعتقدات الجاهلية التي أقاموا عليها تكذيبهم بما توعدهم الله – سبحانه – به علىٰ لسان رسوله من حلول العذاب بهم إن هم أصرُّوا علىٰ كفرهم وجحودهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إنهم ظلوا يستعجلون العذاب، وينكرون البعث بعد الموت، ويسألون عن وقت اليوم الآخر الذي يكون فيه عذابهم لا علىٰ وجه الاستفسار والاستعلام، وإنما علىٰ وجه الاستبعاد والاستهزاء والتعجيز للنبي صلىٰ الله عليه وسلم، وقد سجَّل القرآن الكريم ذلك في مواضع شتىٰ ردّ عليهم فيها اعتقادهم، وأظهر فساد مذهبهم، منها: قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [(١)]، ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(١) الأنفال: ٣٢– ٣٣

﴿ ٣٨ ﴾ ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿ ٧ ﴾ ﴾ [1]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿ ٣ ﴾ ﴾ [2]، ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿ ١٨٧ ﴾ ﴾ [3]، ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿ ٦٣ ﴾ ﴾ [4]، ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿ ٤٢ ﴾ ﴾ [5].

ومن الآيات القرآنية التي سجّلت استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته – أيضًا – قول الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿ ٤٨ ﴾ ﴾ [6]، الذي ورد ذكره في ستة مواضع من القرآن الكريم، اختلف الرَّد في كلّ موضع منها عن نظيره من المواضع الأخرىٰ، اختلافًا يُحرِّك ذهن القارئ، ويثير انتباهه، ويبعثه علىٰ التأمُّل في تلك المواضع لاستخراج دُرَرها، ومعرفة الحكمة في تخصيص موضع منها بجواب غير جواب الآخر، والسرّ في عدم

(١) النحل: ٣٨

(٢) التغابن: ٧

(٣) سبأ: ٣

(٤) الأعراف: ١٨٧

(٥) الأحزاب: ٦٣

(٦) النازعات: ٤٢

(٧) يونس: ٤٨

صلاحية أحدهما لموضع الآخر، لا سيما إذا وضع نُصب عينيه قول الخطيب الإسكافي في مقدمة كتاب درة التنزيل وغرة التأويل : " إذا أورد الحكيم- تقدست أسماؤه- آية علىٰ لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيَّر لفظة عما كانت عليه في الأولىٰ فلا بد من حكمة هناك تُطلَب، وإن أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك، بل جهلتم"[1].

ومن هنا برزت عناية علماء القرآن بالمتشابه اللفظي أو المُكرّر في القرآن الكريم منذ القرون الأولىٰ؛ ذلك أنهم – ولا سيما القُرّاء منهم – رأوا في جمعه حفاظًا علىٰ القرآن الكريم من أن يقع اللحن في كلماته، وتيسيرًا لحفظه حتىٰ لا ينتقل الحافظ سهوًا من آية إلىٰ آية في سورة أخرىٰ لما بينهما من تشابه لفظيّ، هذا ما أشار إليه ابن المنادي (ت٣٣٦هـ) في مقدمة كتابه (متشابه القرآن العظيم) حيث قال: "ولم يبق إلا النوع الذي استحدثه فريق من القراء، ولقبوه المتشابه، وإنما حملهم علىٰ وضعهم إياه للقرأة ردا من سوء الحفظ، وحداهم كون القرآن ذا قصص، وتقديم وتأخير، كثير ترداد أنبائه ومواعظه، وتكرار أخبار من سلف من الأنبياء، والمهلكين الأشقياء، يأتي بعضه بكلام متساوي الأبنية والمعاني علىٰ تفريق ذلك في آي القرآن وسوره، قد يجيء حرف من غير هذا الضرب، فيأتي

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠ هـ). دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفىٰ آيدين. ط: جامعة أم القرىٰ. وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصىٰ بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة. الأولىٰ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م. ١/ ١١

بالواو مرة، وبالفاء مرة، وآخر يأتي بالإدغام تارة، وبالتبيان تارة، وأسماء متماثلة، فاستحبوا أن يجمعوا من حروف متشابهة القرآن ما إذا حفظ منع الغلط" [1].

ولم تعدُ جهود العلماء في تلك الفترة مجرد جمع الآيات المتشابهة من غير توجيه لها، وإبراز سر الاختلاف بينها وبين ما تشبهه في بعض الألفاظ. ثم تلت هذه الفترة مرحلة أخرىٰ تعرّض أصحابها في بعض المواضع للحديث عن توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم في ثنايا تفاسيرهم أو كتبهم في ردّ الشُّبهات، من ذلك ما نجده عند ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في كتابه تأويل مشكل القرآن، ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وأبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) في كتابه معاني القرآن، والقاضي عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥هـ) في كتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن).

ثم جاء من بعدهم الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ) ليبدأ بمُصنَّفه مرحلة ثالثة في هذا المجال، هي مرحلة المُصنَّفَات المُستقلة المتخصصة في توجيه ما يتشابه أو يتماثل أو يتكرر من ألفاظ القرآن الكريم وآياته، وذلك بتصنيفه كتاب (دُرّة التنزيل وغُرّة التأويل) الذي قال في مقدمته: " فاعلموا حملة الكتاب المبين الحكيم، وحفظة القرآن المتين الكريم، وفقكم الله تعالىٰ لحق علمه، بعد حق تلاوته، وأذاقكم من لذة قراءته، وبرد شراب معرفته، ما يشغف قلوبكم بحلاوته، أني مذ خصني الله تعالىٰ بإكرامه وعنايته، وشرفني بإقراء كلامه ودراسته، تدعوني

---

(١) متشابه القرآن العظيم لأبي الحسين أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن أبي داود المنادي (ت ٣٣٦هـ) . رواية أبي العباس أحمد بن عثمان البصري. تحقيق: فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان. ط: مكتبة لينة. دمنهور ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م. ص ٥٩ .

دواع قوية، يبعثها نظر وروية، في الآيات المتكررة، بالكلمات المتفقة، والمختلفة، وحروفها المتشابهة المتعلقة، والمنحرفة تطلبا لعلامات ترفع لبس إشكالها، وتخص الكلمة بآياتها، دون أشكالها، فعزمت عليها بعد أن تأملت أكثر كتب المتقدمين، والمتأخرين، وفتشت عن أسرار معاني المتأولين المحققين المتبرين، فما وجدت أحدا من أهلها بلغ غاية كننها، كيف؟ ولم يقرع بابها ولم يفتر عن نابها، ولم يسفر عن وجهها، ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقانا، وصار لمبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبيانا، ولطعن الجاحدين ردا، ولمسلك الملحدين سدا، وسميته درة التنزيل وغرة التأويل وليس علىٰ الله بأمر منكر مستبدع أن يعثر خاطر عبد ربيء، علىٰ كنز حكمة في القرآن خبيء، أو يبلغه في لطيف من لطائف كلامه حدا، لا يبلغه أحد وإن كان أوحدا. فإذا عرفتم ما نحوناه من سنن الآثار أمنتم عند القراءة مخاوف العثار، ثم تطلعون بعده علىٰ علوم تبدو للنفس، وتحتقرون معها بيان اللبس، وترون ممالك لم تملكها قبلكم أمة، ومسالك لم تجل في مدارجها همة، فتعلمون أن كلام الله جل ذكره وعلا شأنه وأمره بحر لا تستنفد جواهره، وذو عجائب لا تستدرك بواطنه وظواهره، وذو عمق لا يبلغ آخره، وذو طول وعرض لا يقطعه مزاخره، وهو المغنم الذي من حازه ظفرت يداه، ولم يجزع لفوت ما عداه" [1] .

ثم جاء من بعده الإمام محمود بن حمزة الكرماني (ت٥٠٥هـ) فألف كتابه (البرهان في متشابه القرآن) الذي قال في مقدمته: " فإن هذا كتاب أذكر فيه

(١) درة التنزيل وغرة التأويل١/ ٢١٧- ٢٢٠ .

الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن، وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقص، أو تقديم أو تأخير، أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة ولا نقصان، وأبين ما السبب في تكرارها، والفائدة في إعادتها. وما الموجب للزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير والإبدال، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الآية الأخرىٰ؟ ، وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة الأخرىٰ التي تشاكلها أم لا؟ ليجري ذلك مجرىٰ علامات تزيل إشكالها، وتمتاز بها عن أشكالها من غير أن أشتغل بتفسيرها وتأويلها" [(١)] .

وقد تتابعت الجهود بعد الكرماني وتوسّع العلماء في هذا الشأن توسُّعًا كبيرًا، نلمح ذلك في كتاب (ملاك التأويل) لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، وكتاب (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لشيخ الإسلام بدر الدين بن جماعات (ت٧٣٣هـ)، حتىٰ جاء الإمام جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) فاعتنىٰ عناية فائقة بهذا الفن في مؤلفاته، وعدّه علمًا من علوم القرآن، إذ سمّاه في النوع الثالث والستين في كتابه(الإتقان في علوم القرآن) : (الآيات المشتبهات) ، وجعل النوع السادس من وجوه إعجاز القرآن: مشتبهات آياته في كتابه (معترك الأقران) ، ثم أفرد له كتابًا سمّاه (قطف الأزهار في كشف الأسرار) ، قال في مقدمته: "وهذا كتاب شفعت به تلك، ونظمته معها في سلك،

---

(١) أسرار التكرار في القرآن المسمىٰ البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لأبي القاسم محمود بن حمزة بن نصر، برهان الدين الكرماني، (ت ٥٠٥هـ). تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض. ط: دار النشر: دار الفضيلة. ص ٦٤

في أسرار التقديم والتأخير، والتأكيد، والحذف، والإيجاز والإطناب، والنكت البيانية: من التشبيه ، والاستعارة ... ، إلىٰ غير ذلك من أنواعه، وسر ما اختلفت فيه الآيات المتشابهة من تقديم أو تأخير، أو زيادة أو نقص، أو إبدال كلمة بأخرىٰ ... " [1] .

ولعل أبرز المؤلفات في هذا الشأن بعد السيوطي كتاب (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن) لشيخ الإسلام أبي زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) ، قال في مقدمته: " فهذا مختصر من ذكر آيات القرآن المتشابهات المختلفة بزيادة أو تقديم، أو إبدال حرف بآخر، أو غير ذلك مع بيان سبب تكراره.. " [2] .

ولا يمكننا أن نغفل في تلك الفترة – أيضًا – جهود المفسّرين في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم التي زخرت بها تفاسيرهم، أمثال: الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في الكشاف، وابن عطية (ت٥٤٢ه) في المحرر الوجيز، وابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) في زاد المسير، والفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) في التفسير الكبير، والقرطبي (ت ٦٧١هـ) في الجامع لأحكام القرآن، والحسين بن محمد النيسابوري (ت ٧٢٨هـ) في غرائب القرآن ورغائب الفرقان، وأبي حيان (ت٧٤٥ه) في البحر المحيط، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في تفسيره، وغيرهم.

*** *** ***

(١) قطف الأزهار في كشف الأسرار للإمام جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) . تحقيق ودراسة: د/ أحمد بن محمد الحمادي. ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر. الأولىٰ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. ص ٩٥ وما بعدها.

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبي يحيىٰ السنيكي (ت ٩٢٦هـ) تحقيق: محمد علي الصابوني. ط: دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان. الأولىٰ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. ص ٨.

المبحث الأول: موضع سورة يونس

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

تنقل لنا هذه الآيات الكريمة مشهدًا من مشاهد غفلة كفار مكة، وفرط جهلهم سوء عاقبة شركهم، ذلك أن الله – جل وعلا – لمّا توعّدهم بنزول العذاب في قوله قبل هذه الآيات: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢) لم يزدهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا؛ حيث قابلوا هذا الوعيد باستعجال حلول ما وُعدوا به، والسؤال عن وقت نزوله، وقد نقل القرآن الكريم لنا سؤالهم هذا في الآية الكريمة: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣).

واستعمال الفعل المضارع في التعبير عن قولهم هذا جاء علىٰ سبيل الحكاية لحالهم الماضية، وهو في مجمله يدلُّ دلالة قوية علىٰ استمرار استعجالهم العذاب، وتجدُّد ترديدهم لهذه المقولة مرة بعد مرة، وحالًا بعد حال.

---

(١) يونس: ٤٨ – ٥٢

(٢) يونس: ٤٦

(٣) يونس: ٣٨

وقولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ : إشارة إلىٰ العذاب الذي توعّدهم الله – سبحانه وتعالىٰ – به في الآية قبلها: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ ، والمراد به – كما ذكر المفسرون- : قتلهم ببدر[(١)]، وفي التعبير باسم الإشارة (هذا) الموضوع للقريب دلالة علىٰ هوانه عندهم، وحقارته في أعينهم، وصِغره في نفوسهم. والمراد بهذا الاستفهام: استبعاد ما وُعدوا به، وبيان أنه مما لا يكون، وهذا – ولا شك – يفضي بهم إلىٰ تكذيب النبي (صلىٰ الله عليه وسلم)، والقدح في نبوَّته حيث أخبرهم بنزول العذاب، ولمّا ينزل بهم حتىٰ وقت سؤالهم[(٢)] .

(١) يُنظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ). تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس. ط: دار الكتب العلمية، بيروت. الأولىٰ، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م. ٢/ ٥٤٩ ، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٠هـ). تحقيق : عبد الرزاق المهدي. ط: دار إحياء التراث العربي .بيروت .الأولىٰ ، ١٤٢٠هـ. ٢/ ٤٢١ ، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط: دار الكتب المصرية – القاهرة- الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م. ٨/ ٣٤٨ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ). تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت- الأولىٰ – ١٤١٨هـ. ٣/ ١١٥ .

(٢) يُنظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ) . ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت- الثالثة – ١٤٢٠هـ. ١٧/ ٢٦٢، غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ .: خطاب للنبي – صلىٰ الله عليه وسلم – ومن آمن به، وهو شرط حُذف جوابه لتقدُم ما يدلّ عليه، والتقديـــر: "إن كنتـــم صادقين في أنه يأتينا فليأتنا عجلة" (١)، واستعمال (إن) الشرطية هي قرينة خروج الاستفهام إلىٰ معنىٰ الاستبعاد والتكذيب؛ إذ إن فيها – بأصل وضعها للدلالة علىٰ عدم الجزم بوقوع الشرط – إيماء إلىٰ استبعادهم صدق النبي– صلىٰ الله عليه وسلم – ومن معه، وإيحاء باستحالة وقوعه.

وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد بهذا الاستفهام: الاستهزاء بالنبي، والاستخفاف والتهكُّم به، وليس في سياق الآيات ما يؤيِّده، إلا أن يُرَدَّ هذا الوجه إلىٰ الوجه السابق، فيُقال: إن الاستهزاء والاستخفاف ناشئان عن صدور هذا السؤال منهم علىٰ الرغم من استبعادهم ما وعد به وتكذيبه، لا سيما وعبارة بعض المفسرين: قالوا ذلك استبعادًا واستهزاءً (٢) .

الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت ٨٥٠هـ). تحقيق: الشيخ زكريا عميرات. ط: دار الكتب العلمية – بيروت– الأولىٰ – ١٤١٦ هـ .٣/ ٥٨٨ ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ). تحقيق: علي عبد الباري عطية. ط: دار الكتب العلمية – بيروت– الأولىٰ ١٤١٥ هـ. ٦/ ١٢٣.

(١) تفسير الألوسي ٦/ ١٢٣.

(٢) يُنظر: تفسير البيضاوي ٣/ ١١٥، وتفسير القاسمي محاسن التأويل محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ). تحقق: محمد باسل عيون السود. ط: دار الكتب العلمية – بيروت– الأولىٰ – ١٤١٨هـ . ٦/ ٣٠ ، وقال الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) في فتح القدير ٢/ ٥١١: " والاستفهام منهم للإنكار والاستبعاد، وللقدح في النبوة" . فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني. ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت. الأولىٰ – ١٤١٤ هـ.

وبعد هذا السؤال يأمر الله – تعالىٰ – نبيه محمدًا أن يجيبهم بجوابين:

الجـــواب الأول: قولـــــه: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[1]، وفيـــه تـــرك التصريح بالمعنىٰ المراد إلىٰ الكناية عنه، وهذا – ولا شكّ– أدعىٰ لتأكيده، ودفع إنكاره؛ لما في الكناية من دعوىٰ الشيء مصحوبًا بدليله وبرهانه، فقد كنىٰ – صلىٰ الله عليه وسلم – عن تفويض أمر حلول العذاب بهم، وتعيين وقته لله – تعالىٰ – وحده بأن نفىٰ عن نفسه القدرة علىٰ ضر نفسه أو نفعها؛ إذ يلزم من نفيه القدرة علىٰ إنزال الضر أو النفع بنفسه، أن يكون عاجزًا عن إنزال أحدهما بغيره أو استعجاله له بطريق الأولىٰ.

والمتأمل في هذا الجواب يتبين له شدة ملائمته للمقام الواقع فيه، وتمام مطابقته لمقتضىٰ الحال، وبيان ذلك من وجهين:

الوجه الأول:

ملاءمة هذا الجواب ومناسبته لسياق السورة – سورة يونس – التي وقع فيها، والتي ركّزت منذ بدايتها علىٰ إثبات انفراد الله – تعالىٰ – بالقدرة والتدبير والتصرُّف في الأمور كلها، والرد علىٰ المشركين الذين جعلوا له شركاء فيها، وإبطال شركهم وإنكارهم وحدانية الله بعرض البراهين والدلائل الكونية التي تفيد استحقاقه – سبحانه – الإلهية وحده.

والآيات قبل هذا الجواب زاخرة بهذه المعاني، ناطقة بها، وقد تعددت الصيغ والأساليب التي دلّت عليها، فتارة نرىٰ التعبير عنها بالأسلوب الخبري، ومن

---

(١) يونس: ٤٩

ذلك قوله تعالىٰ في خطاب المشركين الذين أشركوا آلهتهم في الخلق والتدبير: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [1]، فجملة (يدبر الأمر) تفيد انفراد الله – تعالىٰ – بتدبير الأمر؛ إذ تقدير الكلام علىٰ الاستئناف: هو يدبر الأمر، ومن المعلوم أن تقديم المسند إليه المعرّف علىٰ المسند الفعلي يفيد تخصيصه به، إذا كان المقام فيه رد علىٰ من زعم انفراد غيره به أو مشاركته فيه [2]، وقد كان المشركون يقرّون بأن الله – تعالىٰ – هو المدبّر، ولكنهم يشركون معه غيره في العبادة، فصاروا بذلك كأنهم أشركوا آلهتهم معه في التدبير، فلذا جاء القصر من نوع الإفراد، ومعناه: الله يدبر الأمر دون شركائكم، فهو المستحق إذًا للعبادة وحده. ويتحقق هذا الوجه سواء كانت الجملة (يدبر الأمر) خبرًا ثانيًا للاسم (ربكم)، أو كانت استئنافية حُذف مبتدؤها (هو). ومثله قوله تعالىٰ عقيب ذلك: ﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [3]، وقد أكّد هذا المعنىٰ لام الجنس في كل من (الأمر ، الخلق) التي تفيد عمومهما وشمول كل أمر وكل خلق.

---

(١) يونس : ٣

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت ٧٣٩هـ). تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي. ط: دار الجيل – بيروت– الثالثة. ٢/ ٥٥ وما بعدها.

(٣) يونس : ٤

كذلك نرىٰ من الأخبار الذي تفيد انفراده – سبحانه – بالتدبير قبل آيات البحث قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ [1]، وقوله – سبحانه – ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [2]، وفيهما أخبر – عز وجل – بانفراده بالتصرُّف في الشمس والقمر وتسيير الخلق في البر والبحر بدلالة تعريف الطرفين (المسند والمسند إليه) علىٰ القصر.

وتارة يكون التعبير عن هذا المعنىٰ بالأسلوب الإنشائي الواقع في صورة الاستفهام، وقد جاء الاستفهام تقريريًّا في موضعين قبل هذه الآيات التي معنا:

الأول: قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [3]، ففي هذه الآية إبطال لشركهم وعنادهم؛ إذ جمع الله – عز وجل – لهم فيها بعضًا من براهين انفراده بالإلهية، واستحقاقه العبادة دون غيره من آلهتهم المزعومة، حيث طلب من نبيه تقريرهم عن الرزق والسمع والبصر والتدبير، وأخبره بأنهم سيقرُّون بنسبتها إلىٰ الله، ومع ذلك لن يؤمنوا.

والثاني: قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [4]، وفيه تقرير بإنكار أن يكون من شركائهم من يبدؤ الخلق ثم يعيده،

---

(١) يونس: ٥

(٢) يونس: ٢٢

(٣) يونس: ٣١

(٤) يونس: ٣٤ – ٣٥

ومن يهدي إلىٰ الحق، وقد أردف هذا التقرير بأسلوبي قصر من نوع الإفراد؛ لتقويته وتأكيده، وذلك قوله: "ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ، ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ ، والمعنىٰ: الله – تعالىٰ – وحده يبدؤ الخلق ثم يعيده، وهو – سبحانه – يهدي للحقِّ دون شركائكم، ومن ثمّ فهو وحده المستحق للعبادة.

وجاء الاستفهام إنكاريًا في موضع ثالث، وهو قول الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [1]، وفيه نُزّل النبي – صلىٰ الله عليه وسلم – لفرط شغفه بإيمانهم – منزلة من يعتقد إشراك نفسه أو انفرادها بالقدرة علىٰ إسماع أو هداية من صرف الله قلبه عن الآيات والهدىٰ، فلذا جاء الاستفهام إنكاريًّا، قُدِّم فيه الاسم (أنت)؛ لإنكار اعتقاد تخصيصه بذلك، وبيان أن ذلك مما لا يقدر عليه، وأنه من تمام قدرة الله – تعالىٰ – وحده.

هذا، وحمل تقديم الاسم هنا علىٰ التخصيص – أي إنكار الفعل علىٰ نفس الفاعل – إنما هو مذهب الإمام عبد القاهر [2]، وأما السكاكي فلم يحمل الآيتين علىٰ التقديم، وإنما حملهما علىٰ الابتداء المراد به تقوية حكم الإنكار [3].

وكما جاء السياق السابق للآيات محِل البحث متلائمًا ومتلاحمًا معها في المعنىٰ المنوطة به، فكذلك لم يكن السياق اللاحق لها بمنأىٰ عن هذا المعنىٰ

(١) يونس: ٤٢ – ٤٣

(٢) يُراجع: دلائل الإعجاز في علم المعاني لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١ هـ). تحقيق: محمود محمد شاكر أبي فهر.ط: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة– الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م. ص١١٨ .

(٣) مفتاح العلوم ليوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبي يعقوب (ت ٦٢٦هـ). ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور. ط: دار الكتب العلمية، بيروت – الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م. ص٣١٦.

الذي هو أحد مقاصد السورة الكريمة، إذ نلمح في كثير من الآيات بعدها ما يفيد انفراد الله – جل وعلا – بملك الأشياء كلها والتصرُّف فيها بدلالة أساليب القصر علىٰ ذلك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1]، ﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [2]، ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [3]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [4]، ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [5] ، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [6] ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [7].

وهكذا مضت السورة الكريمة من أولها إلىٰ آخرها تردّ علىٰ أهل الشرك شركهم، وتُبطل زعمهم أن مع الله آلهة أخرىٰ، حيث نبّهت عقولهم إلىٰ ما في الكون من شواهد الحق، وما في خلقهم من دلائل الرشد التي تدلّ علىٰ انفراده –

---

(١) يونس: ٥٥

(٢) يونس: ٥٦

(٣) يونس : ٦٦

(٤) يونس: ٦٧

(٥) يونس: ٦٨

(٦) يونس: ١٠٠

(٧) يونس: ١٠٧

سبحانه – بالخلق والملك والتدبير، ومن ثمَّ تقودهم إلىٰ الاعتراف بوحدانيته تعالىٰ، شأنها في ذلك شأن غيرها من السور المكيّة التي تجعل هذه المعاني أهم مقاصدها.

وأما الوجه الثاني من وجهي ملاءمة هذا الجواب للمقام الواقع فيه، فهو:

ما تقدّم هذا الجواب من آيات تصوّرُ اعتقاد كفار مكة أن للنبي –صلىٰ الله عليه وسلم– قدرة علىٰ إنزال الآيات، وإتيانهم بما يسألونه، وفيها يأمر الله – عز وجل – نبيه أن ينفي الإرادة والتصرّف المطلق عن نفسه، وأن يردّهما لله وحده، ومن ذلك أن هؤلاء المكذّبين لما اعتقدوا أن النبي له يد في الوحي، سألوه تبديل القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [1] ، فأمره – تعالىٰ – بالرد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ ﴾ [2] ، ثم أمره بأن يجيبهم ثانية بقوله: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [3] ، ولمَّا سألوه آية تدلُّ علىٰ صدق نبوته بقولهم: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ ﴾ [4] ، أمره بقوله: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [5]، قال الطاهر ابن عاشور في نفسير هذه الآية: "

---

(١) يونس: ١٥

(٢) يونس: ١٥

(٣) يونس: ١٦

(٤) يونس : ٢٠

(٥) يونس: ٢٠

واللام للملك، أي الأمور المغيبة لا يقدر عليها إلا الله. وجاء الكلام بصيغة القصر للرد عليهم في اعتقادهم أن في مكنة الرسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة علىٰ أنه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة علىٰ أن الرسول ليس له تصرف في إيقاع ما سألوه ليعلموا أنهم يرمون بسؤالهم إلىٰ الجراءة علىٰ الله تعالىٰ بالإفحام "[1].

وهكذا جاء جوابه -صلىٰ الله عليه وسلم- علىٰ هؤلاء المشركين هنا: ﴿ لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[2]، من جنس جوابه عليهم في هذه المواطن السابقة من حيث اشتراكها جميعًا في دفع القدرة والتصرف عن نفسه، وردّهما إلىٰ الله – تعالىٰ – وحده.

هذا، وفي الآية: تقدّم الضر علىٰ النفع (ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) لتقدُّم ما يناسبه، وهو استعجالهم ضر أنفسهم بسؤالهم (متىٰ هذا الوعد)[3]، وجاء تنكير (ضَرًّا وَلَا

---

(١) التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن محمد ابن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ). ط : الدار التونسية للنشر - تونس١٩٨٤ هـ. ١١/ ١٣١

(٢) يونس: ٤٩

(٣)يُنظر: كشف المعانىٰ فىٰ المتشابه من المثانىٰ لأبي عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (ت ٧٣٣هـ). تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف. ط: دار الوفاء ـ المنصورة- الأولىٰ ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م. ١/ ١٨٨، تفسير الآلوسي ٦/ ١٢٤.

نَفْعًا) في سياق النفي ليفيد العموم، والمعنىٰ – والله أعلم- : لا أملك لنفسي أيَّ ضرٍّ ولا أيّ نفع.

وليس في الآية قصر؛ إذ الاستثناء في قوله (إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ) منقطعٌ – علىٰ رأي أغلب المفسرين- ومعناه: لكن ما شاء الله من ذلك كائن، "وقيل: متصل علىٰ معنىٰ إلا ما شاء الله تعالىٰ أن أملكه، وتعقب بأنه يأباه مقام التبري عن أن يكون له – صلّىٰ الله عليه وسلم – دخل في إتيان الوعد" [1] .

وقوله: (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) فصله عما قبله للاستئناف البياني، حيث أثارت الجملة قبله سؤالًا في النفس عن سبب عدم قدرته – صلىٰ الله عليه وسلم – علىٰ ضرهم وإنزال العذاب بهم، فجاءت هذه الجملة جوابًا عن هذا السؤال المقدّر في النفس، وهو ما يسميه البلاغيون: شبه كمال الاتصال.

وقوله: (إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) فصله عن قوله: (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) لوقوعه بيانًا وتفسيرًا له، وتنزيله منه منزلة عطف البيان من متبوعه، وهو ما يُسمىٰ: الفصل لكمال الاتصال. وفي التعبير بـ (إذا) الشرطية دليل علىٰ كونه واقع لا محالة، وفيه ردٌّ لاستبعادهم، وإبطال لتكذيبهم.

(١) تفسير الألوسي ٦/ ١٢٤

وأما الجواب الثاني الذي أمر الله نبيه أن يردَّ به عليهم فهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1]، ووجه مناسبة هذا الجواب للسؤال هنا: أن استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقت نزوله يوحي بأنهم يؤمنون به إذا حلّ بهم ما استعجلوه، كما صرحوا بذلك في آيات أخرىٰ: كقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾[2]، فلذا جاء هذا الجواب الثاني علىٰ هذا النحو ليفنِّد عليهم ما أوحىٰ به سؤالهم بذكر أنهم مخطئون في زعمهم الإيمان إذا نزل بهم العذاب؛ لأنه سيهلكهم ويُبيدهم، فأنىٰ لهم الإيمان حينئذٍ؟!

وجليٌّ أن هذا الجواب فتح أمام أعينهم نافذة نقلتهم من الخبر إلىٰ العيان، ومن مجرد السمع إلىٰ المشاهدة والبيان، إذ صوّر لهم حالهم في المستقبل وقد جاءهم العذاب وهم غافلون عنه فأهلكهم فلم يتمكّنوا من الإيمان حينئذ كما زعموا، ولا شكّ في أن هذه الصورة المستقبلية كفيلة بأن تقذف الرعب في قلوب

(١) يونس: ٥٠- ٥٢

(٢) الإسراء ٩٠- ٩٢

هؤلاء المشركين، وتُرُدّهم إلىٰ رشدهم فيبادروا بالإيمان قبل فوات الأوان، وتلك هي الغاية المُرادة، ولكن هيهات هيهات..

ويجدر بنا قبل إنهاء الحديث في هذا الموضع أن نقف علىٰ بعض ما في هذه الآيات من لطائف وأسرار كان أبرزها: كثرة الاستفهامات الواقعة فيها، والتي من شأنها أن تجذب الانتباه، وتثير الأذهان، وتحثُّ القلوب علىٰ التفكُّرِ في مضامينها التي تقودها – بلا شكّ – إلىٰ التسليم ببطلان ما هي عليه.

وأوّل هذا الاستفهامات هي قوله تعالىٰ: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [1] ، ومثل هذا الأسلوب جارٍ علىٰ ألسنة العرب، يضمِّنون (أرأيت) معنىٰ (أخبرني) ثم يتبعونها بجملة استفهام، والمعنىٰ هنا: أخبروني عن عذاب الله إن أتاكم، أيُّ شيء تستعجلون منه؟! ، وليس هذا الاستفهام حقيقيًّا، وإنما المراد منه: الإنكار عليهم في استعجالهم إياه، ونفي أن يكون شيءٌ منه صالحًا للاستعجال، والمعنىٰ: "أن العذاب كله مكروه مرّ المذاق موجب للنفار، فأي شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال" [2] ، "لأن كل شيء منه مهلك حائل بينهم وبين التمكن من الإيمان

(١) يونس: ٥٠

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ). ط: دار الكتاب العربي – بيروت – الثالثة ١٤٠٧ هـ. ٢/ ٣٥١

وقت حلوله" [1] ، ويجوز أن يراد بالاستفهام هنا: التفظيع والتهويل، كما يقال لمن هو في أمر قبيح يستوخم عاقبته: ماذا تجني علىٰ نفسك؟ [2] .

وأما الاستفهامان المذكوران في قوله: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [3] فمستعملان في الإنكار: إنكار حصول إيمانهم إذا هم عاينوا العذاب.

والاستفهام الأخير: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ مستعمل في معنىٰ النفي، وفيه قصر الجزاء علىٰ قدر كسبهم في الدنيا؛ للتأكيد علىٰ استحقاقهم العذاب بما قدّمت أيديهم.

ومن لطائف الآيات أيضًا: تقييد الشرط (إن أتاكم عذابه) بالظرفين (بياتًا أو نهارًا) ؛ للدلالة علىٰ كون هذا العذاب يأتيهم بغتة وهم غافلون عنه، وفي هذا كناية عن هوله وفظاعته؛ " لِأَنَّ الْعَذَابَ إِذَا فَاجَأَ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ بِهِ كَانَ أَشَدَّ وَأَصْعَبَ، بِخِلَافِ أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْتَعَدَّ لَهُ وتهيىء لِحُلُولِهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ، ضُحًىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ" [4] .

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في موضعين:

---

(١) التحرير والتنوير ١١/ ١٩٢.

(٢) يُنظر: الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٠ ، تفسير البغوي ٢/ ٤٢٢، تفسير القرطبي ٨/ ٣٥٠.

(٣) يونس: ٥١

(٤) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ). تحقيق: صدقي محمد جميل. ط: دار الفكر - بيروت١٤٢٠ هـ. ٦/ ٦٩.

الأول: ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [1] إذ كان مقتضىٰ الظاهر أن يقول: "ماذا تستعجلون منه" لأن الكلام من أوله مسوق لخطابهم، ولكنه عدل عن ذلك لتسجيل الإجرام عليهم؛ للدلالة علىٰ "موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام، لأنّ من حق المجرم أن يخاف التعذيب علىٰ إجرامه، ويهلك فزعًا من مجيئه وإن أبطأ، فضلا أن يستعجله " [2] .

والموضع الثاني: قوله سبحانه :﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [3] الذي نقلهم فيه من عذاب الدنيا إلىٰ عذاب أشدّ وأعظم عن طريق حرف التراخي (ثم)، وفيه عدل عن مخاطبتهم فوضع الظاهر (الذين ظلموا) موضع ضمير الخطاب؛ للإشارة إلىٰ أنهم لاتصافهم بالظلم صاروا جديرين بهذا الحكم المذكور بعده، والله أعلم.

*** *** ***

(١) يونس: ٥٠

(٢) تفسير الزمخشري ٢/ ٣٥١.

(٣) يونس: ٥٢

المبحث الثاني: موضع سورة الأنبياء

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

وفي هذه الآيات الكريمة صورة أخرىٰ من صور غفلة المشركين، ومشهد آخر من مشاهد استكبارهم وعنادهم، وذلك أن الله – جل وعلا – لمّا أنذرهم بطشه علىٰ لسان رسوله – صلىٰ الله عليه وسلم – وتوعّدهم بحلول عذابي الدنيا والآخرة إن هم أصرّوا علىٰ كفرهم وعنادهم، قابلوا ذلك بالاستخفاف والاستهانة، فاستعجلوا هذا العذاب الذي توعّدهم الله – سبحانه وتعالىٰ – به بمقتضىٰ جِبلَّتهم البشرية التي ذكرها الله – تعالىٰ – في الآية قبلها ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[2]، وسألوا عن وقت حلوله استهزاءً وتهكُّمًا، بقولهم للنبي – صلىٰ الله عليه وسلم – وأصحابه: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

وقولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ : إشارة إلىٰ ما توعّدهم الله – سبحانه وتعالىٰ – به قبل هذه الآية في قوله: ﴿ سَأُورِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾[4]، والمراد به: قيل: هلاكهم في الدنيا بأيدي المؤمنين في بدر، وقيل: عذابهم في الآخرة[5].

---

(١) الأنبياء: ٣٨- ٤٠

(٢) الأنبياء: ٣٧

(٣) الأنبياء: ٣٨

(٤) الأنبياء: ٣٧

(٥) يُنظر: الوسيط ٣/ ٢٣٧، تفسير البغوي ٣/ ٢٨٩، تفسير الرازي ٢٢/ ١٤٥

وإذا كان السياق قد جعلنا نستبعد كون المراد بالاستفهام في آية يونس الاستهزاء والتهكُّم ابتداءً، فالأمر هنا علىٰ العكس تمامًا، إذ يأخذنا السياق للحكم بخروج الاستفهام هنا إلىٰ معنىٰ الاستهزاء والتهكّم بالنبي– صلىٰ الله عليه وسلم – وأصحابه ابتداءً، هذا بالإضافة إلىٰ ما يومئ إليه قولهم: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ من استبعادهم صدق النبي– صلىٰ الله عليه وسلم – ومن معه، وما يوحي به من استحالتهم وقوعه – كما تقدّم.

ويُعـــزِّز معنىٰ الاستهـــــــزاء في سؤالهم هنا ما تقدّم من ذكـــــر استهزائهم بالنبي– صلىٰ الله عليه وسلم – قُبيل هذا السؤال في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ [1]، وما تقدّم في أول السورة من قولهم: ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [2]، ومن ثمّ جاء الجواب عليهم مُجانسًا لاستهزائهم، وملائمًا لاستبعادهم واستحالتهم الواقع، حيث استهزأ الله – تعالىٰ – بهم كما استهزءوا، فاستبعد علمهم، واستحال معرفتهم بما سينالهم من عذاب النار في الآخرة، كما استبعدوا صدق النبي، حين أجابهم بقوله: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [3]، وفيه جاء التعبير بحرف الامتناع والاستحالة (لو) الذي يتناسب تمام التناسب مع

(١) الأنبياء: ٣٦

(٢) الأنبياء: ٣

(٣) الأنبياء: ٣٩

استعمالهم (إن) الشرطية في الآية قبلها من حيث إن كلًّا منهما موضوع للتعبير عن المُحال الوقوع، دالٌّ – في الآيتين – علىٰ الاستهزاء والتهكّم، وهذا أحد أوجه مناسبة الجواب وملاءمته للسؤال في هذا الموضع.

ووجه آخر يؤكِّد تلك المناسبة، ويقوّي هذا التلاؤم، ألا وهو: قوة الصلة، وشدة الترابط بين هذا الجواب، وبين جوّ السورة – سورة الأنبياء- التي وقع فيها، وذلك أن قوله تعالىٰ: ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [1] ، مع ما فيه من الاستهزاء والتهكّم بهم، فإن فيه تهديدًا لهم، وتخويفًا من سوء عاقبتهم، حيث صوّرهم وقد أحاطت بهم النيران من كل جانب، وهم عاجزون عن دفعها، ولا يجدون لهم ناصرًا ينصرهم من دون الله، قال الألوسي: "وقوله تعالىٰ: ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه" [2] .

والمتأمّل في السياق السابق واللاحق للآيات التي معنا يتبيّن له أن تهديد المشركين وتخويف المعاندين، وإنذارهم بذكر ما أنزله الله من عذاب بالأمم السابقة هو أحد مقاصد السورة الكريمة، بل هو خصيصة من خصائص القرآن المكّي – وهو ما نزل قبل الهجرة علىٰ أشهر التعريفات [3] – الذي تنتمي إليه

---

(١) الأنبياء: ٣٩

(٢) روح المعاني ٩/ ٤٨

(٣) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م. ١/ ٣٧

سورة الأنبياء، والذي يتميّز أسلوبه بالشدّة، ويكثر فيه الترهيب والوعيد؛ " لأن أهل مكة كانوا أشداء العارضة صعاب المراس مسرفين في العناد والإباء لم يتركوا بابا من الشر إلا دخلوه علىٰ الرسول وأصحابه ولم يكفهم أن يخرج من بلده وأهله بليل بل وجهوا إليه الأذىٰ في مهاجره" [1].

وافتتاح السورة بقوله –عز وجلّ– منذرًا بقرب وقوع البعث: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ ﴾ [2] لهو خير دليل علىٰ ذلك. قال الطاهر بن عاشور: " افتتاح الكلام بهذه الجملة أسلوب بديع في الافتتاح لما فيه من غرابة الأسلوب وإدخال الروع علىٰ المنذرين، فإن المراد بالناس مشركو مكة، والاقتراب مبالغة في القرب، فصيغة الافتعال الموضوعة للمطاوعة مستعملة في تحقق الفعل أي اشتد قرب وقوعه بهم" [3].

ومن الجمل والآيات التي تحمل معنىٰ التهديد والإنذار قبل الآيات محل البحث: قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [4] ، ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [5] ، ﴿ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت ١٣٦٧هـ). ط: مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه. الثالثة. ١/ ٢٠٩

(٢) الأنبياء: ١

(٣) التحرير والتنوير: ١٧/ ٨

(٤) الأنبياء: ٩

(٥) الأنبياء: ١١

مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] ، ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ [2] .

ومن الجمل والآيات التي تحمل معنىٰ التهديد والإنذار بعدها قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [3] ، ﴿ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [4] ، ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [5] ، ﴿ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [6] ، ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [7] .

وهكذا شاع جو التهديد والتخويف والإنذار في السورة الكريمة، فاتضح بذلك وجه ظهور هذا المعنىٰ في جواب سؤالهم في هذا الموضع، وتبيّنت مناسبته لجوّ السورة، وملائمته لسياقها العام.

---

(١) الأنبياء: ٢٩

(٢) الأنبياء: ٣٧

(٣) الأنبياء: ٤١

(٤) الأنبياء: ٤٦

(٥) الأنبياء: ٩٨

(٦) الأنبياء: ١٠٠

(٧) الأنبياء: ١٠٤

وثمّ وجه ثالث ينطق بهذا التناسب بين الجواب، وبين سياقه السابق، ألا وهو: جواب الشرط المحذوف، حيث ذكر أغلب المفسرين أن جواب (لو) في قوله تعالىٰ: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [1] محذوف لدلالة الكلام عليه، وأن تقديره: (لَمَا أقاموا علىٰ كفرهم واستهزائهم، ولَمَا استعجلوه) [2] . فالاستهزاء المقدّر في جواب الشرط تقدّم ذكر ما يدلّ عليه من سياق الآية السابقة، وأما الاستعجال فيدل عليه سؤالهم المذكور في قوله سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [3] ، كما يدل عليه قوله تعالىٰ قبيل هذه الآية: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [4] ، وقوله – عز وجل – في أول السورة: ﴿ فَلْيَأْتِنَا كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [5]

(١) الأنبياء: ٣٩

(٢) يُنظر: جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر. ط: مؤسسة الرسالة – الأولىٰ ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م. ١٨/ ٤٤٥، تفسير البغوي ٣/ ٢٨٩ ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ). تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. ط: دار الكتب العلمية – بيروت– الأولىٰ – ١٤٢٢هـ. ٤/ ٨٣ ، تفسير القرطبي ١١/ ٢٩٠.

(٣) الأنبياء: ٣٨

(٤) الأنبياء: ٣٧

(٥) الأنبياء: ٥

هذا، ومن لطائف الآيات الكريمة: " إيثار صيغة المضارع في الشرط (يعلم) ، وإن كان المعنىٰ علىٰ المُضيّ؛ لإفادة استمرار عدم العلم بحسب المقام" [1] .

وأيضًا: الإتيان بالمسند إليه اسمًا موصولًا (الذين كفروا) مع أن المقام مقام التعبير بضمير الغائب؛ لتقدُّمه في قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ ، فكان مقتضىٰ الظاهر أن يُقال: "لو يعلمون" ، ولكن القرآن الكريم عدل عن ذلك؛ لنكتة هي: الإشارة إلىٰ وجه استحقاقهم العذاب المذكور في الآية، وهي أنهم كفروا، وعاندوا. كما يحتمل التعبير بالاسم الموصول هنا وجهًا آخر نبّه عليه الألوسي في قوله: " ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة علىٰ علة استعجالهم" [2] .

وكذلك: وقوع الجملة ﴿ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [3] في موضع المضاف إليه للمفعول (حين) يقتضي أن تكون معلومة الانتساب إلىٰ الموصوف عند المخاطب، وهذا غير مُتحَقِّق هنا؛ لإنكار الكافرين ذلك، وإنما وقعت تلك الإضافة؛ للإيذان بأنه من الظهور بحيث لا حاجة إلىٰ الإخبار به، وإنما حقه الانتظام في سلك المسلمات المفروغ عنها [4] ، وهذا -ولا شكّ - أخوف للنفوس، أروع للقلوب.

---

(١) تفسير الألوسي ٩/ ٤٨

(٢) السابق نفسه.

(٣) الأنبياء: ٣٩

(٤) يُنظر: تفسير الألوسي ٩/ ٤٨

وأما قوله تعالىٰ بعد آية الشرط وجوابه: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [(١)] فهو جواب ثانٍ علىٰ استعجالهم العذاب واستهزائهم بالنبي – صلىٰ الله عليه وسلم. و"بل" في الآية ليست للإضراب، وإنما هي من الضرب الثاني الذي ذكره الراغب في مفرداته، وهو الذي يكون فيه ما بعد «بل» مبيّنا للحكم الأول وزائدا عليه، لا ناقضًا له كـ "بل" التي للإضراب[(٢)].

فالمعنىٰ إذًا علىٰ وصل الكلام في هذه الآية بالشرط وجوابه المذكورين في الآية السابقة: لو يعلمون ما هو زائد علىٰ كونهم ﴿ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ، وما هو أعظم منه، وهو أن الساعة تأتيهم " بغتة وهم لها غير محتسبين ولا لأمرها مستعدين فتبهتهم أي تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة في ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفا ولا هم ينظرون أي لا يمهلون لتوبة ولا معذرة " [(٣)] – لو يعلمون ذلك – لما كفروا ولما استعجلوه.

---

(١) الأنبياء: ٤٠

(٢) يُنظر: المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانىٰ (ت ٥٠٢هـ). تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ط: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت – الأولىٰ – ١٤١٢ هـ. ص ١٤٢.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٤٦

والمتأمِّـــــل في هـــــذه الآية وفي سياقها السابق لها، يتبيّن له وجه المناسبة بينهمـــــا، وذلك أنه – سبحانه وتعالىٰ – ذكر قبل هذه الآيات التي معنا أن هؤلاء المشركين حين بالغوا في تكذيبهم الوحي، استعملوا "بل" التي هي من الضرب الثاني، حيث قالوا: ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾، قال الراغب: " فإنّه نبّه أنهم يقولون: أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ، يزيدون علىٰ ذلك أنّ الذي أتىٰ به مفترىٰ افتراه، بل يزيدون فيدّعون أنه كذّاب، فإنّ الشاعر في القرآن عبارة عن الكاذب بالطبع" [1]

فلذا كان المناسب هنا أن يأتي الردّ عليهم جاريًا علىٰ نمط أسلوبهم نفسه الذي انتهجوه في الإساءة إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم ، فجاء التعبير بـ "بل" مصحوبًا بما هو أعظم وأشد هولًا مما ذُكر في الجواب الأول، والمعنىٰ: "لو يعلمون ما هو زائد عن الأول وأعظم منه، وهو أن تأتيهم بغتة" [2] ، هذا هو الوجه، والله أعلم.

*** *** ***

(١) المفردات ص ١٤٢.

(٢) المفردات ص ١٤٢.

المبحث الثالث: موضع سورة النمل

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ [1].

هذا موطن ثالث يستعجل فيه المشركون عذاب الله – تعالىٰ – ويسألون عن وقته استبعادًا وتكذيبًا، والوعد المشار إليه في الآية الأولىٰ هو يوم القيامة؛ ذلك أن قوله تعالىٰ – قُبيل هذه الآيات- : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [2] يصرف الإشارة المذكورة هنا إلىٰ اليوم الآخر، حيث إنهم استبعدوا البعث بعد الموت، وأنكروا النشور، ثم إنهم سألوا في هذه الآية عن وقته استهزاءً وتعجيزًا للنبي – صلىٰ الله عليه وسلم- إذ وعدهم به، ووُعِد آباؤهم به من قبل ولمّا يحدث حتىٰ وقت سؤالهم هذا. وقد أمر الله نبيّه أن يجيبهم بدنو بعض ما استعجلوه من العذاب، والمراد به- كما ذكر المفسرون- هزيمتهم علىٰ أيدي المؤمنين في غزوة بدر، وقتل أشرافهم ورؤسائهم، وتذكيرهم بفضله – سبحانه وتعالىٰ –عليهم؛ إذ أخّر عنهم العذاب رجاء توبتهم، ولكن أكثرهم لا يشكرون ذلك.

---

(١) النمل: ٧١-٧٥

(٢) النمل: ٦٧-٦٨

وإنما أمر الله – عز وجل– نبيه أن يجيبهم بهذا الجواب المشوب بنوع من التهديد والوعيد [(١)] بقرب بعض عذابهم؛ لأنه هو الذي يطابق مقتضىٰ حالهم، ويناسب طبيعة السياق الوارد فيه من عدة وجوه:

أولًا: أنهم أصرُّوا علىٰ استعجال العذاب بعد أن حذّرهم – سبحانه وتعالىٰ – مغبّة استعجاله – قبل هذه الآيات – حين قصّ عليهم نبأ قوم صالح الذين استعجلوا عقاب الله – تعالىٰ – فعاجلهم به، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(١) ومن هذه الأمارات: (عسىٰ) التي تقع في كلام الله – تعالىٰ – للدلالة علىٰ تحقق الوقوع، وإيثار التعبير بالفعل (ردف) دون (قرب) وما فيه من التأكيد علىٰ لصوق العذاب بهم، وكونه تابعهم مباشرة لا محالة؛ لأن مادة (ردف) تدل – بأصل وضعها اللغوي– علىٰ متابعة شيء لآخر، هذا علىٰ اعتبار لام (لكم) لام صلة للتأكيد، وأن المراد: (ردفكم) – أي تبعكم – كما ذكر المفسّرون، وفي إيثار صيغة الماضي في التعبير عما سيأتي دلالة علىٰ تحقُّق الوقوع أيضًا.

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [1] ، ففي هذه الآيات ضرب الله – عزّ وجلّ – لأهل الكفر مثلًا وعبرةً في إهلاك إحدىٰ الأمم السابقة حين استعجلوا عذاب الله ومكروا برسوله؛ لعلهم يزدجرون فلا يصيبهم ما أصاب هذه الأمة من العذاب، ولكن كفّار مكة لم يرعووا ولم يزدجروا، ووقعوا فيما وقع فيه أسلافهم من استعجال العذاب، فكان من المناسب أن تشتدّ لغة الحوار معهم فتكون أكثر حدّة وأشدّ صرامة، وأن يكون سبيل التهديد هو المسلَك الأمثل في هذا المقام.

ثانيًا: أن الله – عزّ وجلّ – دعاهم – قبل هذه الآيات – إلىٰ الإيمان به وحده بطريقين:

الأول: دعوتهم إلىٰ النظر في خلق السماوات والأرض وما فيهما من آيات واضحات تقودهم – بلا ريب – إلىٰ الاعتراف بتوحيده في ربوبيته وألوهيته، قال تعالىٰ: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ

(١) النمل: ٤٥ – ٥٢

يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [1].

الثاني: طريق التهديد والوعيد غير المباشر حين دعاهم إلىٰ النظر في عاقبة المكذّبين قبلهم، الذين أهلكهم الله – تعالىٰ – بكفرهم وتكذيبهم رسله، جاء ذلك في قوله تعالىٰ عن قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [2] ، وقوله عن قوم لوط: فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ [3] ، وقوله: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [4].

ولكن هذا الطريق وذاك السبيل لم يُجديا نفعًا، وصدق – سبحانه – إذ يقول: ﴿ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [5] ، وهكذا كان حال كفار مكة، إذ أصروا علىٰ كفرهم وجحودهم، وسخروا مما وُعدوا به من العذاب، وسألوا عن وقت حلوله استهزاء، فلذا سلك القرآن الكريم الطريق الثالث والأخير في دعوتهم في هذه السورة، وهو طريق التهديد والوعيد المباشر بدنو بعض ما

---

(١) النمل: ٦٠- ٦٤

(٢) النمل: ١٤

(٣) النمل: ٥٧-٥٨

(٤) النمل: ٦٩

(٥) يونس: ١٠١

استعجلوه من العذاب، وذلك قوله – جلّ وعلا– : ﴿ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢ ﴾ [1].

ثالثا: أن هذا الجواب هو الموافق لواقع المقال، ذلك أن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات – وهم كفار مكة – قد اشتدّ جُرمهم وتفاقم ذنبهم حين تجرّؤوا علىٰ ذات الله، وطعنوا في قدرته – جل وعلا – علىٰ إعادتهم أحياء من قبورهم، وذلك في قولهم قُبيل هذه الآيات: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ ﴾ [2]، ثم إنهم لم يكتفوا بذلك، وإنما سألوا تحديد وقت وقوعه استهزاءً بقولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [3]، فلذا أمر الله – عز وجل – نبيه أن يشتدّ عليهم في الــرّد، وأن يتوعَّـــــــــدهم بدنو بعض ما استعجلــــــوه من العذاب جزاء جُرمهم واستهزائهم، والمقصود به: عذابهم في الدنيا علىٰ أيدي المؤمنين يوم بدر كما قال المفسرون [4].

رابعًا: أن هذا الجواب هو الموافق لواقع الحال من جهة قرب المسافة الزمنية بين نزول هذه الآيات وبين غزوة بدر التي توعّدهم الله بها فيها، ذلك أن سورة النمل التي وردت بها هذه الآيات تأخّر نزولها بمكة؛ فهي السابعة والأربعون في عداد نزول السور المكيّة، وقد ذكر المفسّرون أنها نزلت بعد سورة الشعراء التي كان

---

(١) النمل: ٧٢

(٢) النمل ٦٧– ٦٨

(٣) النمل: ٧٠

(٤) يُنظر: الوسيط ٣/ ٣٨٤، تفسير القرطبي ١٣/ ٢٣٠ ، تفسير البيضاوي ٤/ ١٦٦ .

نزولها فيما بين الهجرة إلىٰ الحبشة والإسراء [1] ، وقد كانت غزوة بدر بعد هجرته – صلىٰ الله عليه وسلم– إلىٰ المدينة بعامين ، فكأن هذه الآيات جاءت لتبشِّر المؤمنين بدنو نصر الله، فضلًا عما تضمنته من تهديد المشركين وإنذارهم.

خامسًا: أن هذا الجواب يحمل شيئًا من علم الغيب الذي اختصّ الله – تعالىٰ – به، حيث أنبأهم –سبحانه – بما سينالهم في المستقبل القريب من العذاب الأليم، والمتأمل في آيات السورة الكريمة يجد أنها أكّدت علىٰ اختصاصه تعالىٰ بعلم الغيب في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [2]، و قوله سبحانه: ﴿ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [3]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [4] ، ومن ثم جاء هذا الجواب متلائمًا مع جو السورة الكريمة من ناحية، ومؤكّدًا – من ناحية أخرىٰ – لهؤلاء المخاطبين ذلك المعنىٰ الذي دندنت حوله السورة؛ لأنهم إذا عاينوا ما توعدهم به تأكّد لديهم بطريق عملي صدق اختصاصه – تعالىٰ – بعلم الغيب، ولكن هيهات أن ينفعهم العلم حينئذٍ.

*** *** ***

(١) يُنظر: التحرير والتنوير ١٩/ ٢١٥، الموسوعة القرآنية لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري (ت ١٤١٤هـ). ط: مؤسسة سجل العرب ١٤٠٥ هـ. ٣/ ١٧٤، ٦/ ١٧٧.

(٢) النمل: ٢٥

(٣) النمل: ٦٥

(٤) النمل ٧٤– ٧٥

المبحث الرابع: موضع سورة سبأ

قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(1) .

جاءت الآية الثالثة لتحدّد وظيفة النبي – صلىٰ الله عليه وسلم – وهي أنه جاء رسولا للبشرية جمعاء يبشرهم ثواب الله وينذرهم عقابه، وجاء تذييلها معلِّلًا ما عُطف عليها، حيث نفىٰ الله – تعالىٰ – العلم بحقيقة تلك الوظيفة عن أكثر الناس، وهم المشركون الذين حملهم فرط جهلهم بعقوبة ما وُعدوا به علىٰ استعجاله، والسؤال عن وقت وقوعه استهزاءً وتكذيبًا، وهو ما أخبرت به الآية التالية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾(2).

والإشارة في قولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾ تنصرف هنا – بدلالة السياق– إلىٰ الآخرة وما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب، ذلك أن الله – عز وجل – أمر نبيه أن يعدهم بالفصل بينه وبينهم يوم القيامة في قوله في الآية الأولىٰ من هذه الآيات: ﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾(3) ،

---

(1) سبأ: ٢٦–٣٠

(2) سبأ: ٢٩

(3) سبأ: ٢٦

قال الواحدي: "{قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا} يعني بعد البعث في الآخرة، {ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} ثم يقضي ويحكم بيننا بالعدل، وهو الفتاح القاضي، العليم بما يقضي"[1].

فلما أنبأهم بذلك قالوا علىٰ سبيل الاستهزاء والإنكار: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

ويؤيد كون الإشارة هنا إلىٰ اليوم الآخر: أن سورة سبأ التي وردت بها هذه الآيات قد ركّزت منذ بدايتها علىٰ إثبات أمر الآخرة، وتقرير البعث، وشاع ذلك فيها حتىٰ عُدّ غرضًا عامًّا بُنيت عليه السورة الكريمة، ودارت حوله آياتها، بل إنه لم يرِدْ للآخرة وافر ذكر في أيٍّ من سور القرآن الكريم كما ورد لها في سورة سبأ، ففي مطلع السورة يقول الله – تبارك وتعالىٰ – : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[2] ، ثم يذكر إنكار المشركين لها في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ ﴾[3] ، وقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾[4] ، ويتوعّد منكريها في قولـــــه: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى

---

(١) الوسيط ٣/ ٤٩٥

(٢) سبأ: ١

(٣) سبأ: ٣

(٤) سبأ: ٧-٨

ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ [1] ، ويذكر الحكمة من تسليط الشيطان لغواية قوم سبأ فيقول: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [2] ، ثم ينقل لهم شيئًا من مشاهدها في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [3] ، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [4] ، ثم تُختتم السورة الكريمة بما فُتحت به حيث يذكر لهم مشهدًا آخر من مشاهد الآخرة: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن

(١) سبأ: ٨

(٢) سبأ: ٢١

(٣) سبأ: ٣١- ٣٣

(٤) سبأ: ٤٠-٤٢

مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبٖ ﴾[1].

وهكذا كان ذكر الآخرة وأحوالها هو بيت قصيد السورة الكريمة التي افتتحت به ودارت حوله وكان به ختامها، وهذا ما يؤيد انصراف الإشارة إليها في قولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾.

وأما جواب هذا السؤال فهو المذكور في الآية الثالثة وهي قوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[2] التي أمر الله فيها نبيه أن يخبرهم بأن لهذا الوعد وقتًا قدّره الله تعالىٰ " بين أنه لا استعجال فيه كما لا إمهال، وهذا يفيد عظم الأمر وخطر الخطب، وذلك لأن الأمر الحقير إذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه علىٰ وقت بخلاف الأمر الخطير"[3].

والمتأمّل في هذا الجواب يجده ينطق بأمارات التهديد وعلامات الإنذار لهؤلاء المشركين ويصدع بتخويفهم وإرهابهم بما حوته ألفاظه وتراكيبه من دلالات منها:

أولًا: تقديم المسند (لكم) علىٰ المسند إليه (ميعاد يوم) الذي يفيد كونهم هم المنوطين بهذا الميعاد لأنهم هم المستعجلون له، وهذا كفيل بإلقاء الرعب في

---

(١) سبأ: ٥١-٥٤

(٢) سبأ: ٣٠

(٣) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٠٧.

قلوبهم لأنه ليس كأي موعد، إنه موعد مع الحساب والعقاب، واعتبار معنىٰ القصر في التقديم هنا مُستبعد إذ لا اختصاص لهم بهذا اليوم، فهو يوم محاسبة الجميع المؤمن والكافر.

ثانيًا: تعقيب الإضافة في قوله (ميعاد يوم) بجملة النعت (لا تستأخرون عنه ساعة) وفي هذا ما فيه من المبالغة في الإنذار والتهديد، وذلك أن معنىٰ هذه الإضافة: أن للساعة يومًا معلومًا حدده الله لها لا يتقدم وقوعها ولا يتأخر عنه، وهذا نفسه هو معنىٰ الجملة بعدها (لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون)، وإنما أُعقبت الإضافة بهذه الجملة لتأكيد المراد منها وتقريره، وقُدِّم الاستئخار علىٰ الاستقدام لمراعاة المقام من ناحية، وذلك أن المخاطبين هم أهل الشرك، والميعاد "ميعاد بأس وعذاب عليهم من شأنه أن يتمنوا تأخره" [1]، ولإعلامهم – من ناحية أخرىٰ – بطريق خفي بما سيكون عليه حالهم إذا هم عاينوا الساعة، وهو أنهم سيتمنون تأخيرها ولو وقتًا يسيرًا من عظم ما يجدون من هول الموقف وفظاعته، وهذا أبلغ في الإنذار، وأشدّ في الترهيب. وأما ذكر الاستقدام فوجهه – والله أعلم – أنه المناسب لحالهم في الدنيا وهو أنهم ما زالوا يستعجلون الساعة ويسألون عن وقتها، فبيّن الله – تعالىٰ – لهم في هذه الجملة أن لها وقتًا لا يؤخّره تمنيهم تأخيره إذا جاء، كما لا يُقدّمه استعجالهم إياه بقولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾.

ثالثًا: التأكيد علىٰ وقوع ذلك اليوم –يوم القيامة – الذي يحِلُّ فيه عذابهم، وتحقيق ثبوته، حيث أسند الله – تعالىٰ – الفعل إليهم في قوله: (لَا تَسْتَأْخِرُونَ

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٠١.

عَنْهُ) ، ولم يقل (لا يؤخر عنكم)[1] إشارة منه إلىٰ أنه واقع لا محالة، وهذا جدير بإرهابهم وتخويفهم شر ذلك اليوم المتحقّق الوقوع.

وأما وجه مناسبة هذا الجواب للسؤال هاهنا فيتضح فيما يأتي:

تقدم بيان أن الله – عز وجل – أثبت لهؤلاء المشركين أمر الآخرة، وأكّدّ لهم أنهم مبعوثون بعد موتهم في أكثر من موضع من السورة الكريمة، كما قدّم لهم دلائل العلم وبراهين القدرة التي تثبت أن القادر علىٰ البدء قادر بلا شك علىٰ الإعادة، " ولقصة سبأ التي سميت بها السورة مناسبة كبيرة لهذا المقصد لما فيها من الآيات الشهودية المشهودة – لاسيما عند العرب – علىٰ قدرته سبحانه علىٰ الإيجاد والإعدام، للذات والصفات، والتحويل لما يريد من الأحوال، والتصرف بالحكمة في الإعطاء والمنع ابتداء وجزاء لمن شكر، أو كفر"[2]، ثم إنه – سبحانه – حذّرهم عقوبة التكذيب في الآخرة في قوله قبل هذه الآيات: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾[3] ، ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾[4] .

---

(١) يُنظر: تفسير الرازي ٢٥/ ٢٠٧

(٢) مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ، ويُسَمَّىٰ: "المَقْصِدُ الأَسْمَىٰ في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّىٰ" لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ) . ط: مكتبة المعارف. الرياض. الأولىٰ ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م . ٢/ ٣٧٧ .

(٣) سبأ: ٥

(٤) سبأ: ٨

ولمّا لم يكن كل ذلك رادعًا لهم، وكان حالهم معه حال من لا يقلع عن التكذيب باليوم الآخر، بل والسؤال عن وقته استبعادًا واستهزاء، كان المناسب أن يأتي الجواب حاملًا تهديدهم، متوعِّدًا إياهم بسوء العاقبة التي استعجلوها، متناسبًا في شدته عليهم مع قوة إنكارهم، واشتدادهم في القول مع النبي– صلىٰ الله عليه وسلم – حيث إنهم لم ينكروا مرة واحدة، بل صرّحوا بذلك تارة فقالوا: ﴿ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾[1] ، وسألوا سؤال تعجيب تارة أخرىٰ بقولهم: ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾[2]، وسألوا سؤال تكذيب وتعجيز تارة ثالثة بقولهم ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3]، ولذا قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف انطبق هذا جوابا علىٰ سؤالهم؟ قلت: ما سألوا عن ذلك وهم منكرون له إلا تعنتا، لا استرشادا، فجاء الجواب علىٰ طريق التهديد مطابقا لمجيء السؤال علىٰ سبيل الإنكار والتعنت، وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم. فلا يستطيعون تأخرا عنه ولا تقدّما عليه" [4].

وهكذا جاء الجواب مناسبًا لواقع المقال الوارد فيه، والمتأمّل في زمن نزول الآيات يتبيّن له كذلك موافقة هذا الجواب لواقع الحال الوارد فيه، ذلك أن سورة سبأ التي وردت بها هذه الآيات من أواخر ما نزل بمكة، فهي السورة

---

(١) سبأ:

(٢) سبأ: ٨

(٣)(٣) سبأ: ٢٨

(٤) الكشاف ٣/ ٥٨٣

السابعة والخمسون في عداد نزول السور المكيّة [1] ، ومعنىٰ ذلك أنها نزلت في الفترة التي اشتدت فيها وطأة المشركين، وتفاقم إيذاؤهم للنبي – صلىٰ الله عليه وسلم – والمؤمنين، واحتدت فيها مواجهاتهم القاسية للدعوة، ورغبتهم في القضاء عليها بكل ما أوتوا من قوة، ولذا ناسبت شدة الرد شدة المواجهة، ولاءم التهديد شدة قسوتهم علىٰ النبي وأصحابه.

وقيل إن هذا الجواب جاء علىٰ طريقة الأسلوب الحكيم من حيث إنهم "سألوا عن وقت إرساء الساعة وأجيبوا عن أحوالهم فيها، فكأنه قيل: دعوا السؤال عن وقت إرسائها فإن كينونته لا بدّ منه بل سلوا عن أحوال أنفسكم حيث تكونون مبهوتين متحيرين فيها من هول ما تشاهدون فهذا أليق بحالكم من أن تسألوا عنه" [2].

*** *** ***

(١) يُنظر: الموسوعة القرآنية ٣/ ١٧٤.

(٢) تفسير الألوسي ١١/ ٣١٩.

المبحث الخامس: موضع سورة يس

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [1].

هذا موضع آخر من مواضع استعجال المشركين عذاب الله، وسؤالهم عن وقته استهزاء وتكذيبا للنبي – صلىٰ الله عليه وسلم– وأصحابه.

والإشارة في قولهم (مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ) ترجع إلىٰ المذكور في قوله تعالىٰ قُبيل هذه الآية: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [2]، والمعنىٰ: " "اتقوا ما بين أيديكم" أي من الوقائع فيمن كان قبلكم من الأمم، "وما خلفكم" من الآخرة" [3].

فالمقصود بالوعد إذًا الآخرة وما فيها من بعث ونشور، وحساب وجزاء"، ولذا قال الرازي عند تفسيره هذه الآية: "لَيْسَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَعْدٌ فَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: هذَا الْوَعْدُ إِلَىٰ أَيِّ وَعْدٍ؟ نَقُولُ هُوَ مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ [يس: ٤٥] مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ، أَوْ نَقُولُ هُوَ مَعْلُومٌ وَإِنْ لَمْ

(١) يس: ٤٨-٥٤

(٢) يس: ٤٥

(٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٦.

يَكُنْ مَذْكُورًا لِكَوْنِ الْأَنْبِيَاءِ مُقِيمِينَ علىٰ تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب" [1].

ولم يُجبهم – سبحانه – بتحديد وقتها؛ إذ هي مما استأثر الله – تعالىٰ – بعلمه، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه، وإنما جاء الجواب بعرض مشهد من مشاهد هذا اليوم الذي ينكرونه، ويسألون عن وقته استهزاء، حيث قال جلَّ شأنه: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [2] ، والمعنىٰ: ما ينتظر هؤلاء إلا صيحة القيامة، وهي النفخة الأولىٰ في الصور " تبغتهم وهم في أمنهم وغفلتهم عنها، لا يخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم في متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون، ومعنىٰ خصمون: يخصم بعضهم بعضا. وقيل: تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون فَلا يَسْتَطِيعُونَ أن يوصوا في شيء من أمورهم تَوْصِيَةً ولا يقدرون علىٰ الرجوع إلىٰ منازلهم وأهاليهم، بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة" [3].

ثم أخبر – سبحانه – عما يلقونه في النفخة الثانية، وهي نفخة البعث من الموت، فقال سبحانه: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٨٩.

(٢) يس: ٤٩-٥٠

(٣) الكشاف ٤/ ٢٠.

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

وهكذا جاء الرد علىٰ سؤالهم عن وقت هذا اليوم بذكر شيء من أهواله وشدائده التي يشيب لها الولدان علّهم يرجعون عن تكذيبهم به وإنكارهم إياه، وقد ذكر بعض المفسّرين أن وجه مجيء الجواب هنا علىٰ هذا النسق هو خروجه في صورة الأسلوب الحكيم" إعراضا عن جوابهم لأنهم لم يقصدوا حقيقة الاستفهام فأجيبوا بأن ما أعد لهم من العذاب هو الأجدر بأن ينتظروه" [1].

وهذا القول وإن كان وجهًا يحتمله الجواب هنا، إلا أن طبيعة المقام ودلالات السياق تقضي بترجيح وجه آخر أتىٰ بالجواب علىٰ هذا النحو، وهو أن سورة يس التي وردت بها هذه الآيات سورة مكِيَّة، وقد ركّزت منذ بدايتها – كشأن السور المكيّة– علىٰ قضيّتين: الأولىٰ: إثبات صدق النبي وتأكيد نبوته، والثانية: إثبات البعث والنشور.

فأما القضية الأولىٰ فنجد ملامحها في افتتاح السورة الكريمة بقوله تعالىٰ: ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾ [2] ، ثم في تسليته (صلىٰ الله عليه وسلم) عما لاقاه من تكذيب قومه: أولًا: بذكر حُكمه تعالىٰ عليهم بالغفلة وعدم الإيمان في قوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٣٤

(٢) يس: ١-٥

يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [1]، وثانيًا: بذكر قصة أصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم ثلاثة من الرسل، كلما جاءهم رسول كذّبوه وآذوه، ثم إنهم قتلوا ذلك الرجل الذي آمن برسل الله ودعاهم إلىٰ اتّباعهم، فكان جزاؤهم المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [2] . " أي أنه ما أنزل علىٰ قوم هذا الرجل مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ، فقال مجاهد: أراد أنه لم يرسل رسولا ولا استعتبهم، قال ابن مسعود: أراد لم يحتج في تعذيبهم إلىٰ جند من جنود الله تعالىٰ كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك بل كانت صيحة واحدة لأنهم كانوا أيسر وأهون من ذلك، قال قتادة: والله ما عاتب الله تعالىٰ قومه بعد قتله حتىٰ أهلكهم" [3] .

وفي هذه القصة تهديد ووعيد لمشركي قريش وتحذير لهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أصحاب القرية، تلا هذا التهديد تقرير بما علموه من أحوال الأمم

(١) يس: ٦-١٠

(٢) يس: ٢٨- ٢٩

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٢

المكذّبة السابقة في قوله: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [1]

وأما القضية الثانية التي ركّزت عليها السورة (قضية البعث والنشور) فقد كانت أشدّ بروزًا في جو السورة الكريمة من سابقتها، وقد بدت ملامحها أيضًا في افتتاحها، ففي أولها يأتي قول الحق – تبارك وتعالىٰ- : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [2] .. ثم تأتي قصة أصحاب القرية، وفيها تذكير الرجل المؤمن قومه بالبعث والنشور بقوله: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [3] ، ثم ينقل الله – عز وجل – لهم صورة من صور يوم القيامة حين يذكر جزاء هذا الرجل المؤمن بقوله: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [4] .. ويختمها بتوعّد المُكذّبين الذين ينهجون نهج أصحاب القرية في تكذيب الرسل والاستهزاء بهم بقوله: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [5] الذي يصرّح فيه بإحضار جميع الخلق بين يديه للفصل بينهم يوم القيامة.

---

(١) يس: ٣١

(٢) يس: ١٢

(٣) يس: ٢٢

(٤) يس: ٢٦-٢٧

(٥) يس: ٣٢

ثم يُتبع الله – تعالىٰ – هذه القصة بما يدلُّ علىٰ الحشر من آياته الكونيّة [1] ، ففي الأرض الجدباء التي يحييها – سبحانه – بالغيث فتحمل لهم أقواتهم آية دالة علىٰ إحيائهم بعد موتهم، ولذا قال تعالىٰ في موطن آخر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [2] ، ولهم في الليل الذي يعود إليهم بعد إزالة ضوء النهار عنه آية ثانية، ولهم كذلك آية ثالثة في الشمس، ورابعة في القمر، وذلك أن كلًا منهما يظهر ثم يختفي ثم يعود في الظهور مرة أخرىٰ ثم يختفي، وهكذا كل يوم إلىٰ أن تقوم الساعة. ثم إن لهم في ركوبهم البحر آية سادسة وعلامة علىٰ قدرته تعالىٰ علىٰ كل ما يشاء؛ ذلك أنهم فيه تحت رحمة الله إن شاء أنقذهم منه وإن شاء غيّبهم فيه، ولكنه – سبحانه – نجّاهم منه برحمته وفضله ليمتِّعهم إلىٰ أجل هم بالغوه.

وفي وسط السورة ترد الآيات التي معنا، وفيها صورة أخرىٰ لأول مشاهد الآخرة (النفختين الأولىٰ والثانية)، يتلوها عرض لمشهد كامل من مشاهد القيامة [3] ، وفي نهاية السورة ترد هذه القضية – أيضًا – في صورة حوار مشفوع بالأدلة والبراهين، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِى

---

(١) وذلك في الآيات ٣٣ – ٤٤ من آيات السورة الكريمة.

(٢) فصلت: ٣٩

(٣) وذلك في الآيات ٥٥ – ٦٧ من آيات السورة الكريمة.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [1].

والمتأمِّل في هاتين القضيّتين اللتين دارت عليهما السورة الكريمة يجد ارتباطًا وثيقًا وخيطًا متينًا بينهما وبين الجواب هنا، ذلك أن الله – تعالىٰ- ضرب المثل لهؤلاء المشركين بقصة أصحاب القرية المكذّبين، ثم قرّرهم بما علموه من أخبار الأمم السابقة المكذّبة الذين لم يكن لهم جزاء إلا الإهلاك والإبادة. ثم دعاهم إلىٰ النظر في آياته الكونيّة التي فيها دلائل واضحات علىٰ البعث والنشور كما سبق بيانه، ولكنّ المشركين مع كل هذه الآيات والدلائل والبراهين مازالوا ينكرون اليوم الآخر، بل ويستعجلونه فيسألون عن وقته استهزاء وتكذيبًا، والشأن أن سؤالهم هذا يثير في النفس تعجُّبًا من حالهم يدفعها لأن تسأل سؤال إنكار وتعجُّب: أما زالوا ينكرون البعث بعد كل هذه الدلائل والبراهين علىٰ صدق تحقُّقه؟! ماذا ينتظرون إذًا ؟! فيأتي الجواب: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الآيات.. أي: ما ينتظر هؤلاء بعد كل هذا إلا شيئًا واحدًا هو رادعهم لا محالة، ألا وهو أن تحل بهم بوادر ما أنكروه فتأخذهم صيحة كتلك التي أخذت أصحاب القرية المكذّبين تأخذهم وهم غافلون، فهذا وجه لورود الجواب علىٰ هذا النحو هنا، والله أعلم.

(١) يس: ٧٨-٨٣

وهناك وجه آخر يرجحه تأمُّل السياق أيضًا، وهو أن الله – عز وجلّ – ضرب لهؤلاء المشركين المثل بأصحاب القرية وحذّرهم سوء عاقبتهم، والواقع أن بين أصحاب القرية وبين مشركي مكة تشابهًا كبيرًا؛ إذ يتفقان في تكذيب الرسل وإيذائهم والمكر بهم وبمن آمن معهم، وفي انقطاع الرُّسل عنهم، فكما لم يرسل الله نبيًّا بعد محمد – صلىٰ الله عليه وسلم – فكذلك كان الحال في أصحاب القرية إذ قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ . ثم إن الله – عز وجل – قد ذكر عذاب أصحاب القرية في قوله: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [1] ، ولما كان التشابه بين الفريقين قويًّـــــا، وكان الله – عز وجل – هو الحَكَم العَدْل، لم يكن هناك بُدٌّ من أن يصيب الفريق الثاني (مشركي مكة) مثل ما أصاب الفريق الأول (أصحاب القرية) من العذاب، وأن يكون قوله تعالىٰ في المشركين: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [2] هو القول المناسب لحالهم، وفيه من العذاب ما يليق بمثلهم، وكأنه– سبحانه – يقول لهم: صنعتم صنيع أصحاب أهل القرية وقد حذّرتُكم سوء عاقبتهم، فلا تنتظرون إذا إلا عذابًا كعذابهم، ذلك العذاب أن تأخذكم الصيحة فتبيدكم كما أبادتهم، والله أعلم.

---

(١) يس: ٢٩

(٢) يس: ٤٩–٥٠

ولعل الذي يقوي هذا الوجه هو اتِّحاد أسلوب الجملتين اللتين ذُكر فيهما عذاب الفريقين، حيث اشتركتا في القصر، وفي طريقه (النفي والاستثناء) ، وفي المقصور عليه (صيحة واحدة) ، وهو ما يومئ إلىٰ قصد بيان اشتراكهما في العذاب لاشتراكهما في مُوجبه، والله أعلم.

هذا، وفي الجواب دلالات كثيرة على شدة الأخذ وهول الموقف، من ذلك:

أ- مجيء الردّ في أسلوب قصر، وما يعنيه هذا من كون أخذهم بالصيحة هو مصيرهم الأوحد الذي لا خيار معه يومئذ، فإن قيل: " هُمْ مَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَ بَلْ كَانُوا يَجْزِمُونَ بِعَدَمِهَا، فَنَقُولُ الِانْتِظَارُ فِعْلِيٌّ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ فَاعِلُهُ الْبَوَارَ وَتَعْجِيلَ الْعَذَابِ وَتَقْرِيبَ السَّاعَةِ لَوْلَا حُكْمُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ أَوْ نَقُولُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ مَتَىٰ اسْتِفْهَامًا حَقِيقِيًّا قَالَ يَنْتَظِرُونَ انْتِظَارًا غَيْرَ حَقِيقِيٍّ، لِأَنَّ الْقَائِلَ (مَتَىٰ) يُفهم منه الانتظار نظرا إلىٰ قوله" [1] .

ب- تنكير (صيحة) الذي يفيد تهويلها وتفظيعها، ووصفها بـ (واحدة) دلالة علىٰ كفايتها في أخذهم، وعدم الحاجة معها إلىٰ صيحة أخرىٰ.

ج- تقييد الفعل (تأخذهم) بجملة الحال (وهم يخصمون) فيه دلالة علىٰ كمال غفلتهم وشدة انشغالهم في ذلك الوقت الذي تأخذهم فيه الصيحة من وجوه: أولها: تقديم المسند إليه (هم) علىٰ المسند الفعلي (يخصمون)، وما يفيده ذلك من كون تخاصمهم في البيع والشراء هو شغلهم الشاغل الذي لا يلقون بالًا لغيره، وثانيها: صيغة المضارعة التي تدل علىٰ استمرارهم في

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٩٠

مخاصماتهم التجارية، وثالثها: الإدغام في الفعل (يخصِّمون) [1] وما يوحي به من شدة التخاصم، والانهماك فيه،

وما أحسن قول البقاعي في هذه الإدغام: " {وهم يخصمون } أي يختصمون أي يتخاصمون في معاملاتهم علىٰ غاية من الغفلة، ولعله عبر بذلك إشارة بالإدغام -اللازم عنه التشديد - إلىٰ تناهي الخصام بإقامة أسبابه أعلاها وأدناها إلىٰ حد لا مزيد عليه؛ لأن التاء معناه عند أهل الله: انتهاء التسبيب إلىٰ أدناه، وكل ذلك إشارة إلىٰ أنهم في وقت الصعق يكونون في أعظم الأمان منها لأن إعراضهم عنها بلغ إلىٰ غاية لا مزيد عليها، ويشير الإدغام - أيضًا - إلىٰ أن خصومتهم في غاية الخفاء بالنسبة إلىٰ الصيحة، وإن بلغت الخصومة النهاية في الشدة، ولم يقرأ أحد «يختصمون» بالإظهار إشارة إلىٰ أنه لا يقع في ذلك الوقت خصومه كاملة حتىٰ تكون ظاهرة بل تهلكهم الصيحة قبل استيفاء الحجج وإظهار الدلائل" [2] .

ولا يخفىٰ ما في ذلك كله من دلالة علىٰ عظم الأمر، وخطر الخطب، ولذا قال الرازي: إن " الصَّيْحَةَ الْمُعْتَادَةَ إِذَا وَرَدَتْ عَلَىٰ غَافِلٍ يَرْجُفُ، فَإِنَّ الْمُقْبِلَ عَلَىٰ مُهِمٍّ إِذَا صَاحَ بِهِ صَائِحٌ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ بِخِلَافِ الْمُنْتَظِرِ لِلصَّيْحَةِ، فَإِذَا كَانَ حَالُ الصَّيْحَةِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الشِّدَّةِ وَالْقُوَّةِ وَتَرِدُ عَلَىٰ الْغَافِلِ الَّذِي هُوَ مَعَ خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيحاف أَعْظَمَ" [3] .

---

(١) أصل الفعل: (يختصمون) : حذفت حركة التاء دون نقل، ثم أُدغمت التاء في الصاد.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ). ط: دار الكتاب الإسلامي. القاهرة. ١٦/ ١٣٩ وما بعدها.

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٩٠

د- ما نبّه عليه الإمام الرازي عند تفسيره لقولــه تعالىٰ: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) إذ يقول: " بَيَّنَ شِدَّةَ الْأَخْذِ وَهِيَ بِحَيْثُ لَا تُمْهِلُهُمْ إِلَىٰ أَنْ يُوصُوا. وَفِيهِ أُمُورٌ مُبَيِّنَةٌ لِلشِّدَّةِ:

أَحَدُهَا: عَدَمُ الِاسْتِطَاعَةِ فَإِنَّ قول القائل فلأن في هذه الْحَالِ لَا يُوصِي دُونَ قَوْلِهِ لَا يَسْتَطِيعُ التَّوْصِيَةَ لِأَنَّ مَنْ لَا يُوصِي قَدْ يَسْتَطِيعُهَا.

الثَّانِي: التَّوْصِيَةُ وَهِيَ بِالْقَوْلِ وَالْقَوْلُ يُوجَدُ أَسْرَعَ مما يوجد الفعل فقال: لا يَسْتَطِيعُونَ كَلِمَةً فَكَيْفَ فِعْلًا يَحْتَاجُ إِلَىٰ زَمَانٍ طَوِيلٍ مِنْ أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَرَدِّ الْمَظَالِمِ.

الثَّالِثُ: اخْتِيَارُ التَّوْصِيَةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْكَلِمَاتِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَىٰ أَهَمِّ الْكَلِمَاتِ فَإِنَّ وَقْتَ الْمَوْتِ الْحَاجَةُ إِلَىٰ التَّوْصِيَةِ أَمَسُّ.

الرَّابِعُ: التَّنْكِيرُ فِي التَّوْصِيَةِ لِلتَّعْمِيمِ أَيْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ تَوْصِيَةٍ مَا وَلَوْ كَانَتْ بِكَلِمَةٍ يَسِيرَةٍ، وَلِأَنَّ التَّوْصِيَةَ قَدْ تَحْصُلُ بِالْإِشَارَةِ فَالْعَاجِزُ عَنْهَا عَاجِزٌ عَنْ غَيْرِهَا.

الْخَامِسُ: قَوْلُهُ: وَلا إِلىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ بَيَانٌ لِشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ التَّوْصِيَةِ لِأَنَّ مَنْ يَرْجُو الْوُصُولَ إِلَىٰ أَهْلِهِ قَدْ يُمْسِكُ عَنِ الْوَصِيَّةِ لِعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَأَمَّا مَنْ يَقْطَعُ بِأَنَّهُ لَا وُصُولَ لَهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ التَّوْصِيَةِ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ مَعَ الْحَاجَةِ دَلَّ عَلَىٰ غَايَةِ الشِّدَّةِ " (٢) .

*** *** ***

(١) يس: ٥٠

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٩٠

المبحث السادس: موضع سورة الملك

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1].

تضم هذه الآيات آخر موضع من المواضع القرآنيَّة التي ورد فيه سؤال المشركين النبي – صلىٰ الله عليه وسلم – عن وقت عذابهم بقولهم: متىٰ هذا الوعد؟ ، وإشارتهم في هذا الموضع ترجع إلىٰ الحشر المذكور في الآية قبلها: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [2].

وفيه أمر الله نبيه – صلىٰ الله عليه وسلم – أن يُجيبهم بجملتين: الأولىٰ: ردّ فيها العلم بوقت الساعة إلىٰ الله – تعالىٰ – وحده؛ لأن هذا من الغيب الذي اختصّ – سبحانه – بعلمه، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه، والثانية: بيّن فيها وظيفته– صلىٰ الله عليه وسلم – بالنسبة إليهم، والتي تتمثّل في كونه نذيرًا ينذرهم عذاب الله، ويخوّفهم عقابه.

وقد جاء هذا الجواب في صورة أسلوبي قصر تصدّرتهما (إنما)، وهي المنوطة بالاستعمال في الشيء يعلمه المخاطب ولا ينكره، والمخاطبون هنا– وهم المشركون – يُنكرون هذا الحكم ويجحدونه، وإنما استُعملت (إنما) في مخاطبتهم؛ للدلالة علىٰ كون اختصاصه – تعالىٰ – بعلم وقت الساعة أمرًا

(١) الملك: ٢٤-٢٧

(٢) الملك: ٢٤

معلومًا لا يدفعه أحد، وكذلك كون وظيفته– صلىٰ الله عليه وسلم – تقتصر علىٰ إنذارهم شيئًا لا يُنكره عاقل.

والقصر في الجملة الأولىٰ حقيقيٌّ تحقيقيّ، وفي الجملة الثانية إضافيٌّ من نوع الإفراد؛ ذلك أن المخاطبين كانوا يعتقدون أن النبي– صلىٰ الله عليه وسلم – يجمع بين الإنذار بوقوع هذا الوعد، وبين العلم بوقت وقوعه، فجاء القصر ليظهر خطأهم، ويبين حقيقة وظيفته– صلىٰ الله عليه وسلم – بالنسبة إليهم، وأنها تقتصر علىٰ إنذارهم.

وقد أتت الجملة الأولىٰ من هذا الجواب ملائمة لجو السورة، ومتناسبة مع سياقها العام، من حيث إن السورة الكريمة مسوقة للتعريف بالخالق – جل وعلا– وإثبات وحدانيته ببيان مظاهر علمه وقدرته في خلقه، وفي الجملة (إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ) تقرير لأحد مظاهر علمه – تعالىٰ – وهو العلم بوقت الساعة، وتأكيد علىٰ اختصاصه به.

ولتفصيل القول في بيان وجه المناسبة لا بد لنا من جولة تأمُّليَّة في سياق سورة الملك التي وردت بها هذه الآيات، ولعل أوّل ما يطالعنا في جولتنا هذه هو افتتاح السورة الكريمة بتمجيد الله – جلّ وعلا– وتعظيمه، وإظهار عظيم ملكه وكمال سلطانه، وذلك قوله سبحانه:﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [1] ، ثم إثبات كمال قدرته في تذييل الآية ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] ، هذه القدرة التي من

(١) الملك: ١

(٢) الملك: ١

مظاهرها: خلق الموت والحياة ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [1] ، وخلق السموات السبع ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [2] ، وتزيينها بالنجوم والكواكب ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [3] ، وإعداد جهنم للكافرين ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [4] ، وتبشير المؤمنين بالنعيم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [5] ، وتذليل الأرض للعيش فيها ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [6] .... إلىٰ غير ذلك من مظاهر قدرته – جل وعلا – التي نصّت عليها السورة الكريمة، والتي تتضمن بدلالة الالتزام: إثبات كمال العلم لله – تعالىٰ – لأن الخالق لكل هذه الأشياء لا بد أن يكون عالمًا بها، ولذا أتبع الله – سبحانه وتعالىٰ – هذه الآيات الدالة علىٰ كمال قدرته في الخلق بما يدل علىٰ عظيم علمه نصًّا في قوله: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ

(١) الملك: ٢
(٢) الملك: ٣
(٣) الملك: ٥
(٤) الملك: ٦
(٥) الملك:
(٦) الملك: ١٥

ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [1] ، كذلك نصّت السورة الكريمة علىٰ مظهر آخر من مظاهر علمه – تعالىٰ – وهو إخباره بما سيكون من أمر الكافرين في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾ الآيات ٦- ١١ ، وورد ذلك أيضًا في قوله آخر السورة: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [2] .

وبهذا يتضح للمتأمل أن إثبات صفة العلم هو أحد ركائز السورة الكريمة، وأن هذا هو وجه مناسبة جملة الجواب الأولىٰ(إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ) للسؤال في هذا الموضع، والله أعلم.

وأما الجملة الثانية (وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ) فقد جاءت معطوفة علىٰ الجملة الأولىٰ، وهذا العطف ينبئ – بلا شك – عن معنىٰ جامع بينهما، هذا الجامع هو اشتراكهما في بيان حقيقة وظيفته – صلىٰ الله عليه وسلّم – فالأولىٰ نفت أن يكون العلم بوقت الساعة من خصائص وظيفته، والثانية أثبتت له ما هو منها، وهو الإنذار.

وهذه الجملة – أيضًا – جاءت ملائمة للسياق، ومعانقة للمقام الواردة فيه، ذلك أن السياق إنما هو في مخاطبة المشركين الذين ينكرون البعث، ويُكذِّبون بما توعّدهم الله به من عذاب الآخرة إن أصروا علىٰ كفرهم، فكان من المناسب

(١) الملك: ١٣ – ١٤

(٢) الملك: ٢٧

أن يقصر النبي – صلىٰ الله عليه وسلم – نفسه علىٰ وظيفة الإنذار التي تخصُّ مخاطَبيه؛ ليُبيِّن خطأ ظنهم أنه يجمع بين الإنذار وبين العلم بوقت وقوع ما أُنذروا به.

علىٰ أن هناك وجهًا آخر لذكر الإنذار هنا، وهو ما تقدّم ذكره أول السورة في معرض حديثه – سبحانه – عما يلاقيه الكفار من عذاب يوم القيامة في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ ﴾[1].

فكأن هذه الجملة (إنما أنا نذير مبين) أتت لتنطق بتوبيخهم وتعنيفهم، وكأنه – صلىٰ الله عليه وسلم – يقول لهم: إن أنا إلا ذلكم النذير الذي ستقرُّون برسالته وتعترفون بنبوّته يوم لا يجدي الإقرار ولا ينفع الاعتراف شيئًا، وكأنها – أيضًا – رسالة ربّانيّة أن أفيقوا من غفلتكم، وآمنوا بهذا النذير قبل أن تتعرضوا لذلك الموقف العصيب، ويجري علىٰ ألسنتكم هذا الكلام الذي ينطق بعلامات الندم، وأمارات الحسرة، والله أعلم.

*** *** ***

(١) الملك: ٦ – ٩

تتمة:

إذا كانت البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال مع فصاحته، فالقرآن الكريم هو المثل الأعلىٰ في هذا المضمار، وليس ما تقدم من صفحات هذا البحث إلا تأكيدًا لهذا وتدليلًا عليه، إذ يلحظ المتأمِّل تعدُّد الرُّد وتنُّوع الجواب علىٰ الرغم من أن السؤال واحد والمخاطب واحد أيضًا، وما ذاك إلا لاختلاف حال المخاطب في كلِّ موضع، وتبايُن سياق كل سورة عن السورة الأخرىٰ كما تقدّم تفصيله.

وجدير بالذكر هنا أن ما يسميه البلاغيون (مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال) هو ما فطن إليه المفسّرون وعلماء القرآن في العصور الأولىٰ، وأطلقوا عليه اسم (علم المناسبة) وعدُّوه وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ ذلك " أن القرآن الكريم نزل مفرقًا منجمًا لبضعة وعشرين عامًا حسب الوقائع المختلفة وفي ظروف متباينة، وإجابة لاستفسارات متنوعة، ثم كان الترتيب المحكم الذي لا نجد فيه آية ينبو بها مكانها من السياق القرآني العتيد. ولا نجد كلمة يتململ بها موضعها في النظم المحكم. ولقد نجد الآية المدنية في السورة المكية أو الآية تتلو الآية والفاصل في نزولهما يبلغ عدة سنوات فأي عقل بشري يستطيع أن يراعي هذه الدقة وهذا الإحكام في النسق والترتيب والملاءمة بحيث يكون ذلك في الذروة من الفصاحة والبلاغة والانسجام " [(١)].

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفىٰ مسلم. ط: دار القلم .الرابعة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. ص ٩٠

ولذا حرص العلماء علىٰ إبراز وجوه تناسب آيات القرآن الكريم وسوره [1] ، وتشعّبت مذاهبهم في هذا الشأن، فمنهم من عمل علىٰ إبراز المناسبة بين أول السورة وخاتمة السورة التي قبلها، ومنهم من اتّجه نحو السورة الواحدة يبرز المناسبة بين آياتها، ويُبيِّن تماسكها ووحدة مضمونها، ويُظهر مناسبة فاتحتها لخاتمتها، وهذا النوع قريب جدًا من مضمون هذا البحث الذي عوّل علىٰ السياق في أغلب توجيهاته، وكشف عن وجه ملاءمة الجواب لسياقه في كل موضع.

*** *** ***

(١) من هؤلاء العلماء الإمام أبو بكر النيسابوري (ت ٣٢٤ه) ، وابن العربي المالكي (ت ٥٤٣ه) في تفسيره (أحكام القرآن) ، والإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) في تفسيره (مفاتيح الغيب) ، وأبو جعفر بن الزبير الأندلسي (ت ٨٠٧هـ) في كتابه (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن) ، والزركشي (ت ٧٩٤ه) في النوع الثاني من كتابه (البرهان في علوم القرآن) والحافظ برهان الدين البقاعي (ت ٨٠٧ه) في كتابه المشهور (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) ، والسيوطي (ت٩١١ه) في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور).

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام علىٰ المبعوث رحمة للبريات محمد بن عبد الله، وعلىٰ آله وصحبه أفضل الصلوات وأتمّ التسليمات.

وبعـــــــد ،،،

فإن خصائص القرآن الكريم جمّة، وفرائده منزّلة تترا، وقد حاولت في هذه الدراسة أن أبرز جانبًا من جوانب إعجاز القرآن الكريم فيما تشابه لفظه، وتكررت مواضعه، وأن أكشف الصدف عن دُرر لفظه ومكنونات نظمه، وهذا بعض ما هداني الله لاستنباطه من خـــلال هذه الدراسة:

أولًا: المُصنَّفَات التي أُلِّفت في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم منها ما عُني بمجرد جمعه، ومنها ما اهتمّ بجمعه وتوجيهه، وكلا النوعين لم يتعرّض لقول الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، ومواضعه في القرآن الكريم، وكذلك خلت كتب التفسير من تناوُل هذه الآية علىٰ أنها سؤال يتكرر بجواب متعدد، فلم يذكر أحدهم – مثلا – عند تفسيره لها في موضع أنها وردت في مواضع أخرىٰ، وأن الجواب هنا غير الجواب هناك، وأن السر في ذلك كذا، بل غاية ما وجدته في ما ندر من تفاسيرهم أن يذكر أحدهم في أحد مواضع هذه الآية وجه الجواب فيها، دون التعرُّض لغيره من المواضع، ومقارنته به.

ثانيًا: هناك أمورٌ أدّت إلىٰ تعدُّد جواب هذا السؤال الواحد بتعدُّد مواضعه التي ورد فيها، ومن أهم هذه الأمور: اختلاف مقصد كل سورة، وموضوعها العام الذي تتناوله، فلكل سورة موضوع أو قضيـــــة كليّة تندرج تحتها جزئياتها

المتمثِّلة في آياتها الكريمة، وقد تبيّـــــن – خـــلال هـــذه الدراسة – ملاءمة الجواب في كل موضع لمقصد السورة التي ورد فيها، ومناسبته للسياق الذي وقع فيه.

ثالثًا: كذلك كان لاختلاف كل من واقع الحال، وواقع المقال أثر في تعدُّد الجواب وتنوُّع الرد في المواضع الستة.

*** *** ***

ثبت المصادر والمراجع

القـــــــــــــرآن الكريم.

١-الإتقان في علوم القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢-أسرار التكرار في القرآن المسمىٰ البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لأبي القاسم محمود بن حمزة بن نصر، برهان الدين الكرماني (ت ٥٠٥هـ). تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض. ط: دار النشر: دار الفضيلة.

٣-إعجاز القرآن للباقلاني إعجاز القرآن للباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ) . تحقيق: السيد أحمد صقر. ط: دار المعارف – مصر. الخامسة، ١٩٩٧م.

٤-أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ). تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت- الأولىٰ – ١٤١٨ه.

٥-الإيضاح في علوم البلاغة لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت ٧٣٩هـ). تحقيق: محمد عبد المنعم خفـــــــاجي. ط: دار الجيل – بيروت- الثالثة.

٦-البحـــــــر المحيط في التفسير لأبي حيـــــان محمد بن يوسف بـــــــن علي بن يوسف بن حيان أثيـــر الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ). تحقيق: صدقي محمد جميل. ط: دار الفكر – بيروت١٤٢٠ هـ.

٧-التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن محمد ابن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ). ط : الدار التونسية للنشر - تونس١٩٨٤ هـ.

٨-تفسير القاسمي محاسن التأويل محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ). تحقق: محمد باسل عيون السود. ط: دار الكتب العلمية - بيروت- الأولىٰ - ١٤١٨هـ .

٩-جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر. ط: مؤسسة الرسالة - الأولىٰ ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

١٠-الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط: دار الكتب المصرية - القاهرة- الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١١-درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني، الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ). دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفىٰ آيدين. ط: جامعة أم القرىٰ. وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصىٰ بها (٣٠) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة. الأولىٰ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٢-دلائل الإعجاز في علم المعاني لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت ٤٧١هـ). تحقيق: محمود محمد شاكر أبي فهر.ط: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة- الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ). تحقيق: علي عبد الباري عطية. ط: دار الكتب العلمية – بيروت- الأولىٰ ١٤١٥ هـ. ٦/ ١٢٣.

١٤-غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت ٨٥٠هـ). تحقيق: الشيخ زكريا عميرات. ط: دار الكتب العلمية – بيروت- الأولىٰ - ١٤١٦ هـ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبي يحيىٰ السنيكي (ت ٩٢٦هـ) تحقيق: محمد علي الصابوني. ط: دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان. الأولىٰ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٥-فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني. ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت. الأولىٰ - ١٤١٤ هـ.

١٦-قطف الأزهار في كشف الأسرار للإمام جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) . تحقيق ودراسة: د/ أحمد بن محمد الحمادي. ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. قطر. الأولىٰ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ). ط: دار الكتاب العربي – بيروت – الثالثة ١٤٠٧ هـ.

١٨-كشف المعاني في المتشابه من المثاني لأبي عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (ت ٧٣٣هـ). تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف. ط: دار الوفاء ـ المنصورة- الأولىٰ ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

١٩-متشابه القرآن العظيم لأبي الحسين أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن أبي داود المنادي (ت ٣٣٦هـ) . رواية أبي العباس أحمد بن عثمان البصري. تحقيق: فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان. ط: مكتبة لينة. دمنهور ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٢٠-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ). تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. ط: دار الكتب العلمية – بيروت- الأولىٰ - ١٤٢٢هـ.

٢١-مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السِّوَرِ، ويُسَمَّىٰ: "المَقْصِدُ الأَسْمَىٰ في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّىٰ". لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ) . ط: مكتبة المعارف. الرياض. الأولىٰ ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

٢٢-معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي لأبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد ابن الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٠هـ). تحقيق : عبد الرزاق المهدي. ط: دار إحياء التراث العربي .بيروت .الأولىٰ ، ١٤٢٠هـ.

٢٣-مفاتيح الغيب = التفسير الكبير لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ) . ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت- الثالثة - ١٤٢٠هـ.

٢٤-مفتاح العلوم ليوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبي يعقوب (ت ٦٢٦هـ). ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور. ط: دار الكتب العلمية، بيروت - الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٢٥-المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ). تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ط: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت – الأولىٰ – ١٤١٢ هـ.

٢٦-مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت ١٣٦٧هـ). ط: مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه. الثالثة.

٢٧-الموسوعة القرآنية لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري (ت ١٤١٤هـ). ط: مؤسسة سجل العرب ١٤٠٥هـ.

٢٨-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ). ط: دار الكتاب الإسلامي. القاهرة.

٢٩-الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ). تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس. ط: دار الكتب العلمية، بيروت. الأولىٰ، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.

*** *** ***